

و. محمد خالدة

روايات مصرية للجيب

39

سافاري

NDIE

راحل الى هناك

www.dvd4arab.com

الخصائص

الإعياء ..

الإعياء ..

أنت نهبط لأسفل .. الأرض تنوب من تحت قدميك كأنها تنقب ..

شعرت بهذا في سن التاسعة عندما انقض عليك أخوك وابن عمك وصديق ثالث ، وكانوا يمزحون .. راحوا بدغدغتك بلا توقف .. أنت تضحك وتقاوم وتصرخ .. سقطت على الأرض ، فالتفوا من حولك .. تشعر بيد أخيك تدغدغ هنا ويد ابن عمك تدغدغ هناك .. أنت عاجز عن التنفس .. أنت غير قادر على التقاط أنفاسك .. غير قادر على الكلام .. تريد أن تطالبهم بالتوقف لكنهم لا يصدقون .. يتمادون ..

الذعر يستبد بك .. بقعة الظلام تكون أمام عينك .. كالبحر فوق النشاق .. تنمو .. تتسع .. تتعدد ..

توقفوا أرجوكم ! توقفوا ! أريد أن أتنف .. أن أتنفس !

هنا بدأت تدرك أن الأرض تنوب من تحت قدميك وأنت تفوس بلا توقف .. فيما بعد قالوا إنك سقطت كالبالون المثقوب بين أيديهم .. احتاجوا إلى وقت طويل حتى توقفوا وأدركوا أنك فلك

الوعى .. أنك شاحب وأن شفتيك بنون الورق وأن العرق البارد
يغمرك .. لابد أن قلوبهم توقفت بدورها من الهلع .. يقول أخوك
إن عشر سنوات قد اختصرت من عمره فى تلك اللحظات حتى
فتحت عينك وتكلمت ..

الآن أنت تهبط لأسفل ..
لكنك لا تشعر بالذعر ذاته ..

أخوك نفسه هنا .. يضحك لك ضحكة الفاهم لما يجرى ..
يقول لك وهو يرفع إبهامه :

« هلم .. سترى أنها تجربة رائعة ! »

مدرس اللغة الفرنسية زميل أبيك .. أستاذ (سراج) الذى كان
يصر على أن تسميه (مسيو سراج) ، وكنت أنت تخجل من هذا
لأنه يشعرك بالتحذلق .. إنه يقف هناك .. يحمل الكتاب تحت
إبطه والعصا الفاخرة التى كان يفخر بها ، والتى ألقاها بالشريط
اللاصق .. يقول لك فى عصبية :

« Plus vite .. Plus vite .. »

ويلوح بالعصا فتركض ..

ها هي ذى (مها) .. تستند على حافة النافذة عبر الشارع الضيق ، وتلظر لك متظاهرة بأنها لا تفعل .. النافذة مفتوحة وأنت تتظاهر بأنك منهمك فى حمل الأثقال فلا تراها .. الأثقال التى هي كالعادة عصا خشبية بها ثقلان من الأسمنت .. عندما ترفع الثقل سوف تشمخ عضلة ذراعك ذات الرأسين ، وترسم عليها الأوردة واضحة ، وعندها ربما تروق لها ..

وربما لا ..

ترفع صوت المذياع أكثر ليحمل لها صوت (عبد الحليم حافظ) الربيعى وهو يقول : « بحياتك يا وئدى امرأة عينها سبخان المعبود .. فمها مرسوم كالعنقود .. »

كيف يكون هناك قم كالعنقود ؟ لابد أن حبيبة (نزار قباني) هذه مرعبة أو تعانى من داء الشفة المشقوقة .. هذا عيب خلقى يمكن إصلاحه بجراحة ..

تقطب (مها) متظاهرة بأنها لاحظت أنك تعاكسها فجاء .. تحمل الكتب تحت إبطها وتلظر لك فى حلق وتغادر غرفتها نحو الجانب الآخر .. بثياب الخروج وتحمل الكتب .. إذن هي ذالبا إلى درس الفيزياء .. لا شك فى هذا ..

أنت تهبط لأسفل .. مقدمة قصة أنيس في بلاد العجائب ..
عندما أرادت أن تطارد الأرنب فسقطت في بئر بلا قرار ..
الظلام ..

أين ذهب النور ؟ هناك ظلام في كل مكان .. أنواع عدة من
الظلام .. ظلام حالك .. ظلام دامس .. ظلام منلهم .. ظلام رمادي ..
ظلام ضعيف الشخصية .. ظلام لا يعتبر نفسه ظلاما .. ظلام
يتوهج .. ظلام فوسفوري .. ظلام مظلم .. ظلام بالعايونيز ..
ظلام بالصلصة العكسيكية مع شرائح الأسبراجس .. وفر أكثر
وخذ الكومبو مباشرة ..

تنظر لأسفل ..

يبدو أن الفاع من زجاج مثل قاع مراكب البحر الأحمر .. فقط
السك الملون هنا غريب المنظر نوعا .. أسماك ملونة آدمية
بيضاء اللون تحتشد حول جسد .. الجسد شاخص البصر إلى
السماء ، وهامد الحركة .. إنه ينظر لك لكنه لا يراك ..

المد يضرب الشط ، والرمال الفيروزية تنتشر محاولة أن
تذوب لكنها لا تذوب .. الحمقاء لا تعرف أن الرمل لا يذوب في
الماء .. النوارس تحلق صاخبة وتحاول أن تظفر بعينك .. ربما
تظفر برأسك كما حدث لصاحب السجن مع سيدنا (يوسف) ..

ظهور النور من أكلت عيوننا .. من قال هذا ؟ (جابريل جارسيا
ماركيز) .. نحن الرجال الجوف .. قالها (أليوت) ..

في القاع الزجاجي ما زالوا يلتفون حول الجسد .. الجسد الذي
لا يتحرك .. يتكلمون .. يصخبون .. هناك الكثير من التوتر
الذي يبدو لك سخيفا .. لكنك ترى وجه النائم وتذكر أنه أنت ..
أنت بالذات دون سواك ..

لقد فرغ ! لم يعد مله لقع ولم تعد له وظيفة ..

خذوه .. القوة في أول حفرة تقابلكم ..

أنت الآن حر ..

فقط لو لم يكن هذا الظلام .. هذا الظلام ..

الآن أنت ترتفع من جديد ..

هناك تيار يحملك لأعلى .. هذا النفق الطويل ..

الطويل يمتد إلى الأبد ..

الظلام في جوانبه ، لكنك ترى النور عند نهايته ..

هذه الفتحة تتسرب منها إضاءة ساطعة .. إضاءة تغشى بصره

في البداية ثم تعتادها فتحبها .. ضوء بهيج مفعم بالأمل ..

يجب ان ابلغه .. يجب ..

هى ذى برنادت تقف الى جانب النفق .. تهمس لك :

- « لا تلمس الأرض بقدميك وإلا غرست فى الرمال للأبد ..
ابق قدميك عاليتين .. أنا أحبك .. تذكر هذا ! »

تمتد يد (شينبى) إليك .. يحاول أن يعوق حركتك ..
سوف يتفلسف كثيراً جداً ويعطلك . لا وقت يا سيدى .. إننى
أقرب ..

تفجر السدّ وتكتمش النجوم .. تولد عشرات الثقوب السود ..
ومن مكان ما فى الكون تولد نجوم جديدة تتأعب .. إنها تنهض ..
لينأصوّر يخرج رأسه فى تئاتل من مياه مستنقع وسط السراخس ..
يحاول أن يقتصك لكك تراوغة ..

وفى مكان ما تسبح حيوانات الأرتيميا الدقيقة مراوغة فينقض
عليها الجمبرى ليظفر بها ، بينما ينفجر آخر الغام (دوفر)
وتتقدم الفوات الغازية .. يجثو الإسكلندر أمام تعثال آمون فى
واحة سيوة .. إنه نصاب يا سادة .. لا تصدقوه .. هو ما زال
يؤمن بزبوس لكنه يخدعكم لأنه يعرف أن الدين هو الطريق
الوحيد للوصول إلى قلب المصرى ..

أنت تقترب من النور ..

من فتحة النلق ..

سوف تعبر ..

شعور بالنشوة يفمرك ، لكنه كذلك توتر لذيذ .. لرجة معينة

محببة من الخوف ..

لكنك سوف تعبر ..

وسوف ترى ما ينتظرك هناك ..

تعرف مصدر هذا الضوء وسره ..

ربما تذوب فيه للأبد ..

ربما لهذا جئت إلى العالم ..

ربما لهذا أنت موجود .. كي تذوب فيه فلا يصيرك

وجود ..

.. Plus vite .. Plus vite

من البطيء إلى السريع ..

لارجيتو ..

أداجيو ..

أندالتي ..

اليجريتو ..

اليجرو ..

برستو ..

- 1 -

العاشرة مساء ..

هنا فى وحدة (سافارى) تعرف أن موعد النوم قد حان ..
هناك صمت .. هناك سكون .. هناك إضاءة خافتة .. حتى
الرائحة تتغير ..

إنها العاشرة مساء ..

نهاية يوم طويل من العناء والجري والعرق والمصطلحات
اللاتينية والقىء والمalaria والإيدز ولغات الزولو والخوسا والتال ..
نهاية يوم من الولادات المتعسرة والجروح الخطرة والكسور
المضاعفة وأورام الثدي والقولون والحميات المجهولة .. نهاية
يوم من المشاكل الإدارية والحسابات ..

خلية النحل توشك على أن تخلد للنوم ..

هنا فقط ينهض رجال الأمن النوبتجيون .. وردية المقيرة كما
يطلق عليها الأمريكان .. إنهم مجموعة من الأثارقة الذين يلبسون
الزى الرسمى الأزرق ويعلقون شعار (سافارى) المميز .. كشأن
يتدلى من الحزام وهاووة ..

هذا الذي تراه يمشى فى العمر هو (راماكيل) .. اسم من
 ازلوا فعلاً . ومعناه (الذى جاءنا مفاجأة) .. إنه ضخم اجثة
 متشكك نشاط جداً . ترى فى عينيه نظرة كلب الصيد النقيظ . مما
 يخبرك أنه حتماً مستجد هنا .

يمشى فى تودة فى الطابق السفلى وهو يلقي نظرة عبرة على كل
 شيء .. على المكتب الفارغ المخصص لموظفة الاستقبال .. على
 الأتربة الصغيرة الأنيق .. على الهواتف المعلقة على الحدار ..

ثم يصل لنهية الردهة حيث مصعد المرضى .. إنه يراقب الأضواء
 ثم يصعد على زر الاستدعاء .. يلكر فى الصعود إلى الطابق الثانى
 حيث رميله (موليهى) .. سوف يجوبان الطابق مغاثم يعودان إلى
 غرفة لأخراسة حيث يلعبان الورق ويشربان تشاي .. فقط سيقوم كل
 واحد منهما بجولة كل ساعتين . هذا هو روتين الحياة ..

المصعد لا يهبط ..

هذا غريب ..

إنه متوقف فى الطابق الثالث على الأرجح ..

كان يعرف هذا جيداً .. هناك كثيرون من يلصقون ورقة على
 الخاية لضوئية للمصاعد كي يظل الباب مفتوحاً ، وهذا على سبيل
 السبحة حتى يبقى المصعد بانتظارهم إلى أن يتموا عملاً ما ..

دق على الباب المعدنى عدة مرات بلا جدوى .. لا أحد يرد ..
لا داعى للصياح ..

ضغط على زر الاستدعاء بلا جدوى ..

شعر بغیظ .. إن هذا الوغد قد عطل المصعد خمس دقائق
بلا طائل .. لو كتبت هذه حلة طوارئ لمات المريض وتغن قبل أن ..
فى النهاية قرر أن يصعد الدرج على قدميه ، وابتسم للمكرة أن
يجد المتسبب نفسه أمام رجل الأمن المرعب الغاضب .. الناس
تعقد أن بوسعها عمل أى شىء بعد العاشرة مساء .. لكنهم
مخطئون ..

يصعد فى الدرج .. الطابق الثانى . هل يمر على (موليهى) ؟
لا .. سوف يستغرق وقتاً إلى أن يجده ..
يصعد إلى الطابق الثالث .. ويتقدم نحو فتحة المصعد ..
هنا وقف متصلياً ..

باب المصعد يحاول ما استطاع .. ينقلب وينفتح بلا توقف
محاولاً أن يلبي النداء ، لكن لا جدوى ..

السبب هو هذا الجسد المنكفى على وجهه فى فرجة الباب ..
الباب يحاول أن ينقلب لكنه يصطدم بالجسد فينفتح من جديد ..
هكذا عملية أبدية بلا جدوى ..

دنا من الجسد وهو يهاب أن يلمسه ..

يمكنه أن يدرك من هنا أن هذا رجل أبيض ضخم الجثة ،
وعلى الأرجح هو ميت .. هذا التصليب يوحي بأنه لا حياة فيه ..

لهذا تشجع أكثر ومد يديه بجر الجثة خارج فرجة الباب ،
وعلى الفور انغلق الباب وهرع المصعد بلهى النداء .. قبل
انغلاق الباب لمح شيئاً فى ركن المصعد .. عرقه لكن لم يستطع
تبين كنهه ولم يجد الوقت الكافى لذلك على كل حال ..

قلب الجسد على ظهره .. لماذا تصير جثث الموتى ثقيلة إلى
هذا الحد ؟ كأن كل شيء فيها يناديها إلى أن تلتحم بقلب الأرض ..
كأنها ثقنت كل ما يربطها بالسما ..

لكنه يعرف هذا الوجه ..

إنه طبيب فى الوحدة .. غالباً هو ألمتى .. وهو الآن ميت
كما هو واضح .. كما أنه لا يلبس معطفاً طبياً .. إنه يلبس الثياب
(المدنية) ..

هل توجد جروح ؟ لا .. لكن من الصعب أن يموت إنسان هنا
عند مدخل المصعد من دون أن يُقتل ..

من فعل هذا ؟ متى ؟

كان باب المصعد قد انغلق فعاد يضغط على زر الاستدعاء وقد بدأت مسافاه ترتجف لا شعوريا ..

من جديد انفتح الباب .. ينقل هو يرى ما ظن أنه رأى ..
هناك محقق فارغ ملقى على أرضية المصعد ..

هنا كانت أعصاب رجل الأمن القوي للشجاع (بهبع) تمتدلين ..
قد انفلتت تماما .. هو لم ير جثة في حياته ، وقد بدا له الأمر
كأنه حلم وهو يقابله هنا في الليل وحده ..

استند (رامكيل) الذي جاءنا مفاجأة إلى الجدار على بعد
خطوات من الميت وراح يركب كالأطفال .. يركب . والأسوأ أنه
كلما حاول السيطرة على نفسه يركب أكثر ..

* * *

خلال نصف ساعة كانت القصة شبة مكتملة ..

رجال الشرطة الأتاركة ملئوا المكان وراحوا ينادون المصور ..
جاء مدير الوحدة د. (بالينجا بايلا) وبانديه د. (هاسافن
بيردن) .. كلاهما منكوش الشعر منتفخ العين كأنه بدأ انبوه
قبل استدعائه بلحظات ..

المعروفى شود (كارل شرايدر) طبيب التخدير الألماني للشعب .
إنه في وحدة سافاري منذ عامين ..

لا أحد يعرف كيف مات ، لكن الفحص الأولي قال إنها نوبة
قلبية أو ...

أو جرعة زائدة من المخدر ..

المحقق الفارغ الملقى في المصعد يحوى بقلبا سائل ما .. هناك
لار حَقَن في أوردة الساعد .. القصة إذن واضحة أكثر من اللازم ..
هناك اسدول مورفين فارغ في جيبه .. طبيب التخدير الشاب الذي
وجد في دورته - بحكم عمله - ما يروى ظمأه إلى المخدرات ..
وبالتأبع يحتاج مدمن المخدرات إلى زيادة الجرعة يوماً بعد يوم ..
هذا من صميم تعريف الإدمان .. حتى تأتي اللحظة التي تصير فيها
الجرعة التي نشعره بالنشوة هي بالضبط الجرعة القاتلة ..

قال رجل الشرطة الأفريقى (سويكيزيسا) لمدير الوحدة :

- « لا يمكن أن نعطي استنتاجات قبل تقرير الطبيب الشرعى ،
لكن لا اعتد أن تقريره سيحوى مفاجآت .. لقد تسأل الطبيب
إلى المصعد ليكون في خلوة ، وحقق نفسه بجرعة زائدة .. شعر
أنه يموت ، وغادر المصعد لكن الأجل لم يمضه وسقط هناك في
درجة الباب .. »

لم يكن المدير مهتماً بهذا كله .. فقط كان يشعر بأن الأطباء الذين
يموتون في المصاعد لا يثبتون بوحدة برأسها هو .. هذه فضيحة ..

إدمن مخدرات .. جرعة زائدة ! قصة قنطرة بحق ولن تبت
رائحتها أن تبلغ المركز الرئيس فى النمسا ..

أما نائبته (هانا) فكانت تشعر بدهشة .. الطبيب من الطراز
الراقى المذهب ، وهو أقرب إلى شاعر حالم .. ليس من طراز
مدمنى المخدرات ..

قال لها المدير :

- « الشعراء الحالمون يتعاطون المخدرات أكثر من سواهم .
تذكرى (بولنير) و (إجر آلان بو) .. هذه هى الشخصيات الإيجابية
بحق .. »

- « لكن من يموتون فى المصاعد يختلفون عن هذا .. »

- « أتالم أر مدمنين كثيرين يموتون فى المصعد .. ربما كانوا
جميعاً من هذا الطراز .. »

كان الجدل العقيم دائراً بينما المحفة تحمل الضحية مغطاة
بالملاءات خارج الوحدة .. لن يجتاز هذا الباب ثانية للأبد .. لن
يتعاطى جرعة أخرى للأبد ..

لن يسمع ما يقال عنه ..

- 2 -

ربما بدأ الأمر كذا ..

كنت أمارس عملى فى وحدة (سافارى) كالمعتاد .. لقد عدت من (كالأهاري) مع (فاسيلي) الروسى وخطيبته (سيمونيتا) الإيطالية . بعد تلك القصة الرهيبة التى إما أنك قرأتها فلا داعى للكلام عنها ، أو لم تقرأها فلا داعى للكلام عنها كذلك ! أذكر أننا أيام الكلية كنا نتلقى الحديث عن دروس علم الأمراض ووظائف الأعضاء أمام أحد .. فالمستمع إما طبيب وهذا يعنى أنه سيجد الكلام مملاً سخيفاً ، وإما هو ليس طبيباً ومعنى هذا أن الأمر لا يعنيه فى شيء ولن يفهم أكثره ..

كنا بحاجة إلى بعض أيام نعود فيها إلى لياقتنا ، وعامة لم نعد نتكلم عن (مارثا) أو العقارب ..

كنت مشتاقاً إلى (سافارى) الأصلية .. سافارى الكامبيرون .. الخبر المبهج هنا هو معرفتى أن اتدأبى أوشك على الانتهاء .. سوف أعود فى الأيام المقبلة ! هكذا ترك جنوب إفريقيا بما فيها من فكريات عن أونوايا والزولو والخوى خوى وصحراء كالأهاري .. أحمد الله أننى لم أصب إلا بالمalaria بين الأمراض ، وطعنات على أيدى قطاع طريق شقيت منها بسرعة .. هناك قطرات من دم (أونوايا) تجري فى دمي .. هناك ندوب فى جدار بطنى ..

ترك النبال أرض (ماتديلا) وأكف عن استعمال الطريقة في الكلام ..

الآن وأنا على وشك الرحيل يبدو لي هذه الذكريات جميلة ..
لكني برغم هذا لن أبقى هنا ساعة أخرى .. سوف أعود إلى
(اتجاو نديري) العزيزة ، وأرى برنات من جديد .. سوف أحكي
لهم عن النبال وعن مغامراتي مع قبائل اليوشمن ، وعن الخوى
ذوى .. سوف أضحك كثيرا عندما أفكر في كل هؤلاء اليوساء
الذين لم يروا ما رأيت ..

أعتقد أنني سأطلب إجازة لزيارة مصر كذلك .. سوف تأخذني
برنات معها إلى كندا .. هذا عام صاخب إذن ..
لهم أن تمر الأيام القادمة على خير ..

قالوا لي إنه حفل جميل وأنه لابد أن أكون معهم هناك ..
كانوا مجموعة من أطباء الوحدة .. أنت تعرف (سيمونيئا)
(فاسيلي) و (مكفادين) .. لقد قابلتهم كثيرا .. هناك طبيب
وطبيبة من إنجلترا . كلهم قال لي في حماس إن الحفل رائع .

قلت لهم في تحفظ :

- « لست راغباً في شيء سوى أن أترك وشأني .. »

قال (مكفادين) :

- « لابد من أن تأتي معنا .. يجب أن ترى كيف يمرح الناس

هنا .. »

هكذا وافقت .. لابد من أن أوافق في النهاية .

الحفل في دربان ، لهذا سيكون علينا أن نركب سيارة الطبيب البريطاني (جون كارديف) .. (مكفادين) المكتنز بجواره بينما يتراحم الباقون في المقعد الخلفي .. هذا شيء لا يطلق بالنسبة لي خاصة عندما أجد (فاسيلي) في حضني وفخذه فوق عنقي ، فهذا يمر النطاق النفسى الذى يصنعه المرء حول ذاته ، لكن علينا أن نتحمل بعض الوقت ، المسافة ليست طويلة على كل حال برغم وعورة الطريق ..

أخيراً تحت جناح الظلام تصل السيارة إلى ما يشبه بيتاً ريفياً من طبق واحد تحيط به مساحة خالية من الأشجار .. نفس منظر البيوت الريفية عندما فى مصر ، حتى تتوقع أن هذا (ديار) وأن هناك غرفة مسافرين و (قاعة) . وأن صينية الرفاق والبط ستدخل عليك فى أية لحظة ..

كان البيت مفتوحاً لكنك في الخارج ترى مجموعة من
المشاعل المعلقة لإضفاء جو أفريقي .. النتيجة أنك تشعر بأنك
ترى حفل فودو في فيلم رعب أمريكي ..

هناك من يقف في الخارج في شرفة واسعة تحيط بالبيت،
بينما تتبعث من الداخل موسيقاً أفريقية صاخبة مطورة تم مزجها
بالديسكو ..

تدخل لترى خليطاً غريباً من الأوروبيين والأفارقة يرقصون
في صخب وجنون .. الأفارقة حرصوا على أن يلبسوا اللباس
الوطني وبعضهم وضع ما يشبه جلد النمر على كتفيه .. هناك
عمالق أسود عاري الجذع خليق الرأس مبلل بالعرق يرقص
بلا توقف ، ويحمل زجاجة يفرغها في جوفه طيلة الوقت .. هناك
ألف قلادة وألف وشم على صدره ..

هناك من يتواثب .. هناك من أرهقه الرقص فخرج إلى
الشرفة ليتلقى لدغات البعوض ..

الآن صرت وحدي لأن كل من كانوا حولي قد اتهمكوا في الرقص ..
انف في الشرفة .. فتاة هولندية بدينة كإفراس النهر تنظر
مني حاملة كأساً .. تقدمه لي فأهز يدي وأبتسم :

- « لا أشرب .. شكراً .. »

- « سأحاول أن أتيك ببعض العصير إذن .. »

لمسبب ما اعتبرت أنني ضيفها .. على قدر علمي هي ضيفة مثلي .. البيت يخص طبيباً أقريناً من الوحدة أراد الترفيه عن رفاهه فما دخلها هي في الموضوع ؟

نعود بكأس تحوى سائلاً أصفر .. أبتسم وقد تذكرت (الحاجة الأصفرة) التي يقدمها (ستيفان روستي) للفتيات في أفلامنا العربية القديمة .. هذا عصير يرتقال على كل حال ..

أشرب جرعة وأشكرها ، فتقول وهي تتأمل وجهي :

- « ابتسامتك جميلة .. وجهك صارم فيه حزن غريب ؛ لهذا تضيله هذه الابتسامة .. »

ثم فكرت قليلاً ، وقالت :

- « هل تعرف آل باتشينو في فيلم (سربيكو) ؟ هذا هو طابع وجهك بالحب .. »

آل باتشينو ؟ إذن أنا وسيم جداً .. لو عرفت هذا منذ زمن لامتلات فخراً ..

هكذا يمر الوقت وهي لا تكف عن الكلام .. لقد اعتبرت أننا ننسى للنفس العالم ما دمنا زهرتي حائط من الفين لا يشاركون

فى صخب الحفل .. طبعاً أنا لا أجيد الرقص وهى لا تستطيعه ..
هذا هو السبب ..

تكفلت بأن جعلت أمسيتى جحيماً .. أسوأ تعذيب فى العالم هو
الشخص المصرُّ على الكلام بينما أنت مثقل بالهدوم ، ترغب فى
أن تبقى صامتاً وأن تصفى لأفكارك ..

لقد ظننت تتكلم ساعة كاملة .. يبدو أنها كانت معجبة بى بحكم
الضرورة .. لا يوجد رجال آخرون لا يرقصون ..

كانت سكرتيرة فى شركة ما إن لم أكن مخطئاً .. صديقها تخطى
عنها منذ عام . إلخ .. كلام فارغ لا يلتهى .. وأنا أبتسم ..

كان الحفل يزداد صخباً .. الخمر لعبت برءوسهم .. زجاجات ..
زجاجات .. لا أشك فى وجود مخدرات كذلك .. يزدادون خيالاً ..
العملاق الأسود يخف عنى أريكة ويرقص كالثييفان .. من ست
سماعات تنصاعد أغاني الزولو .. البيت يرتج .. هذا نوع من الزل
الغريب لإخراج أى كبت ، لو كان عند هؤلاء القوم أى كبت .

عندما يعمل الغربيون تشعر بأنهم روبوتات جادة لا تتعب أبداً ،
وعندما يهزلون تشعر بأنهم السفه مجسداً .. لا يمكن أن تحدث
شلة أكثر بلاهة وخرقاً من هذه التى ترقص فى الحفل الآن ..

زجاجات .. زجاجات .. كيف يشربون هذا (الهيباب) ؟ منذ
طفولتي أشعر بأن من يشربون الخمر يشربون خلا .. خلا له
ذات المذاق الكريه ، ولهذا ارتبط شكل الخمر عندي بالمرض ..
بدواء السعال .. كان هذا حفل مخصص لشرب أدوية السعال ..
لا أعرف متى ولا كيف انتهى هذا التعذيب ..

خرج الأطباء جميعاً ونزاع كل منهم على كتف الآخر وهم
يقفون بصوت نشاز جدير بالسكاري .. لا أعرف الأغنية
المشتركة بين الروسى والإيطالية والبريطانى والأسكتلندى لكنهم
اخترعوها على كل حال ..

قال لى البريطانى وهو ينوح بزجاجة شبه فارغة :

- « هيا يا بنى .. لنعد قبل أن تفلق ماما عليك .. »

هكذا ودعت الفتاة فأمسكت يدي وبدأت دمعة فى عينيها .. إنه
الفراق إذن .. مسكينة .. يحزننى كثيراً لمط البدين العجز عن
الخلاص من بدائته ، والذي يشعر بتوتر عاطفى دائم بسبب هذا
ثعبان الذى لا ذنب له فيه . دعك من الاحتياج للحب .. كلهم
مرهف الحس يحمل طاقة حب وحنان هائلة لا سبيل لتفجيرها ..
مستعب كثيراً حتى تجد ذلك البدين المراضى عن نفسه متبذلاً الحس
الذى تظهره السينما المصرية لتسخر منه ؛ لهذا - ومن دون أى
دافع آخر - رفعت يدها إلى شفتى ولثمتها .. حقاً هو تصرف
أعمق لكنى فعلته ولم أندم ..

هنا تصاعدت صيحات الاستحسان الخبيثة من الأوغاد الذين
معى . العربى الشاب المتوحد قد وجد رفيقة ..
اتجهنا إلى السيارة الواقفة فى الظلام ..

هنا، قذف لى (كارديف) البريطانى بشيء فى الهواء . تنقته
فاكتشفت أنها مفاتيح السيارة !

قلت فى دهشة :

« لماذا ؟ »

قال وهو يفتح الباب الجانبى :

« لأنك ستعيدنا للبيت يا بنى .. لا يمكننا القيادة بهذه الحالة .. »

وقال (فاسيلى) بلسان معوج :

« لماذا أتيت معنا إذن ؟ نحن نعرف أنك لا تذوق الخمر .. »

هنا فهمت إصرار هؤلاء الأوغاد على اصطحابى للحفل ..
كانوا يعرفون أنهم سيكونون ثعلبين كالصراصير لدى عولتنا ، لذا
أصروا على أن يكون معهم أحقى يعود بهم لوحدة سافارى بعد
إنهاء الحفل . كنت سائقاً خصوصياً من دون علمى ..

لكنهم نسوا شيئاً بسيطاً :

- « أنا لا أعرف القيادة ! »

نظروا لى فى ذهول .. هذا آخر شىء خطر لهم ببال .. فعلاً
لنا لا أجيد القيادة .. أقود السيارات لكن بصعوبة بالغة وأحتاج
إلى ساعات طويلة من التمرين قبل أن تجربنى ..

هتوا فى صوت واحد :

- « يالك من أحق ! لماذا لم تقل هذا من البداية ؟ »

- « لأنكم لم تسألوا من البداية ! لا أحد يجيب عن أسئلة لم
تطرح ! »

من دون كلمة أخرى دار (كارديف) حول السيارة ليتخذ
مكانه خلف عجلة القيادة ..

قلت محتجاً :

- « بحالتك هذه لن تقودها أكثر من مترين قبل أن تسبب حادثة
مروغا .. »

- « أنت لم تترك لنا الخيار .. لن نقضى ليلتنا هنا .. »

تراحموا جميعاً داخل السيارة فلم أجد موضعاً إلا جوار السائق
هذه المرة .. وكنت أشعر بخجل شديد لأننى لا أجيد القيادة ..
لقد صار ذلك شيئاً مخجلاً فى هذا الزمن ..

هذا كبوس على الأرجح .. كبوس ولا أراه على أى ضوء آخر ..

* * *

الضوء الساطع يعنى عيوننا قدما نحونا مباشرة ..

صوت البوق يتعالى ..

هذه ساحة تامة إلى (ديربان) عبر الطريق الضيق .. هلم

• (كريف) . تتعجبا واجملها تمر ..

لكن .

انت تدفع نديها رأسا أيها المعتوه !

* * *

- 3 -

كما في كل الحوادث يصعب جداً أن تصف ما حدث وما رأيت ..
 هناك تلك الشعور للعام بالقضياع وعدم الاتزان .. هناك لشعور
 بأنك بلا وزن .. هناك الشعور بأنك تحلق في الهواء ..
 هناك الشعور بعدم التصديق .. هناك الظلام ..

الدكتورة (صافيناز) أستاذ الطب الشرعي تتكلم في نقطة
 من الأماكن (الزمكان - الزمن والمكان) .. تنظر لنا نقرن
 الحازمة وشعرها الأشيب يتألق في ضوء النيون بقاعة الدرس .
 تقول :

- « أكثر الوفيات والإصابات في حوادث السيارات تحدث لدى
 ذلك المتعمس الذي يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً في
 السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

لا أعرف أين هي ولا متى . فقط أراها تكرر هذا المقطع مراراً
 بينما أطيّر في الهواء ..

ظلام .. ظلام .. أنواع عدة من الظلام .. ظلام حالك .. ظلام
 دامس .. ظلام ملهم .. ظلام رمادي .. ظلام ضعيف شخصية ..
 ظلام لا يعتبر نفسه ظلاماً .. ظلام يتوهج .. ظلام فوسلوري ..

ظلام مظلم .. ظلام بالمايونيز .. ظلام بالصلصة العكسيكية مع
شرائح الأسبازاجس .. وفر أكثر وخذ الكومبو مباشرة ..

نوحة عن الليل هي .. هناك طفل شقي بلل فرشاة باللون
الأسود الثقيل ومشى بها على معالم النوحة ، فصار الظلام دامسا
لكثر .. صار له سنك ..

صار .. هه ...

كنت جربت هذا الشعور مرارا .. لا تذكر كم مرة كدت تموت
فيها ..

لكنك في هذه المرة تشعر بأن هذه الكلمة الأخيرة .. هناك مرة
أخيرة دائما ..

منضدة باردة .. كشافات .. كشافات تعمى عينك .. وجوه
تنظر لك ..

هذه برنات .. هذه أمي .. هذا أخى .. هذه جارتي .. هذه
نصيرين .. هذا شيلبي .. كلهم يقف في ملل بانتظار انتهاء هذا
الهراس ..

مضيعة للوقت .. الاحتضار مضيعة للوقت .. لابد من الانتظار
حتى ينتهى هذا كله .. يا للملل !
ارتفع .. ارتفع ..

نظرت إلى أسفل .. كيف ارتفع بينما جسدى ما زال على المنضدة !
إنهم يتحلقون حوله كالذئاب .. ماذا يفعلون ؟ هل يأكثونه ؟
لا أبالي على كل حال .. هذا الجسد لم يعد يخصنى .. إن
عنة طعام أكلت ما فيها وألقيتها ..
ارتفع أكثر فأكثر ..

« أكثر الوفيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لدر
ذلك التعصب الذى يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً فى
السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

هناك نفق طويل مظلم أصبح فيه .. أعرف هذا النفق .. رأيت
فى أحلامى من قبل ..

أعتقد أنه عند نهاية هذا النفق سأعرف .. أعرف مثلاً
لا أعرف ..

فقط أتبين شخصاً ينظر لى من أعلى .. أنا أعرفه .. هذا
الهيئة مميزة ..

الرأس البيضماوى .. الصلعة .. النظارة .. الشارب الأسود
الرفيع ..

هذا أبى !

أبى هنا ؟ فى جنوب أفريقيا ؟ كيف جاء ومتى ؟ كنت أحسبه
قد مات .. أنا دفنته بىدى هاتين .. لكنه هنا أمامى ..

يقول لى بصوته الصارم المميز :

- « يا ولدا علاء ! »

يا للكرثة ! هذه لهجة اللوم .. أقسم بالله أنتى لم أعسر هذه
شهرية .. لم أفتح الثلاجة لأكل آخر قطعة شيكولاته .. لم أقف
ساعتين فى الثاغذة أنتظر أن تمر (مها) ابنة الجيران للحظة ..

لم أفعل شيئا ، فلماذا اللوم ؟

- « يا ولدا (علاء) ! »

يقولها من جديد وأنا أصبح كالمنطاد ناظرا إليه لكنى لم أبلغ
مستواه بعد ..

- « عد الآن .. إن وقتك لم يحن بعد ! »

أى وقت ؟ عم تتكلم يا أبى ؟

أستاذ (عبد العظيم البحراوى) .. أبى .. أفضل مدرس لغة
فرنسية فى شبرا كلها .. ربما لهذا لم أتعلم الفرنسية قط . جئت
للعالم وأنا أعرفها .. ولهذا وجدت فرصتى فى أفريقيا ..

أنا أرتفع .. لقد صرت فوق مستواه ..

إنه يتعد لكن النظرة الحازمة ما زالت فى عينيه .. وهو
يراقبنى فى شك كأنه يعرف أننى سأؤذى نفسى كالعادة ..

هذا النور الساطع فى نهاية النفق .. يشعرتى براحة بالغة ..

سلام نفسى لا أريد أن ينتهى ..

- « أكثر الوفقيات والإصابات فى حوادث السيارات تحدث لمدى
ذلك التعس الذى يجنس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً فى
السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

صوت أزيز يتعالى لكنه ليس كربها .. يدغدغ الأذن حث
فتطلب المزيد منه .. من أين يأتى ؟

أنا أغترب من هذا النور الساطع ..

بعد لحظات أعبره ..

بعد لحظات لن تكون هناك أسرار ..

سوف أعرف كل شيء ..

Plus vite .. Plus vite ..

من البطيء إلى السريع ..

لأرجيتو ..

أداجيو ..

لقدلتى ..

الجريئو ..

الجرو ..

برستو .

★ ★ ★

لكنى فجأة وجدت نفسى على المنضدة الباردة ..

كانوا يحيطون بى بينما الكشافات ترمى عبنى ..

آه ! باردة جدًا .. صلبة جدًا هذه المنضدة ..

أريد التنفس .. لا أريد الزحام يا حمقى !

أرى وجوهاً مقطبة لكنهم جميعاً يلبسون الأبيض .. واسمع

لأننا بالإنجليزية :

- « إنه يعود ! ضعي قناع الأكسجين ! »

شيء بلاستيكي خائق بوضع على أنفي ..

ما هذا ؟ ما كل هذه الخراطيم الخارجة من ذراعي ؟ أين لنا ؟

- « أكثر انوفيات والإصابات في حوادث السيارات تحدث لدى ذلك الشخص الذي يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أمنًا في السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

لماذا تضايقتني ؟ لماذا منعتموني من رؤية الضوء ؟

كنت ساعرف يا حمقى .. كنت ساعرف ..

حاولت البكاء لكن ذلك القناع منعى ..

أنفي ..

هذه المرة أنزلق للظلام لكن من دون نفق ولا ضوء .

- 4 -

نعم يا د. (ماتريك) ..

لقد استعطت لياقتى تقريبًا بعد الحادث ..

أعرف أن المشهد كان مروعا وأن قلبي توقف لبضع لحظات ..
لقد انقلبت السيارة ، لكن أحدا لم يصب بأذى سوى بعض
الرضوض .. أتحدث عن هؤلاء السكارى طبعا ، أما أنا فلم أكن
أضغ حزام الأمان ، وقد طرت من النافذة وارتطمت بالتراب على
بعد عشرة أمتار من السيارة ..

كسور في الضلوع .. تجمع دموى في الصدر .. كسور في
الساق لكن أهم شيء حدث لي هو أنني تزفت كثيرا جدا . وقد
نقلنا عدة وحدات من الدم .. منذ جئت إلى جنوب أفريقيا وأنا
أنف وأنتقى دما .. لقد صار غذا إيفاع حياتي ..

لقد اتصلوا بوحدة سافاري وسرعان ما جاءت سيارة الإسعاف
تحملي إلى المستشفى .. على الأقل كان هؤلاء المجانين يعرفون
كيف يطلبون رقما على الهاتف الخلوي . حسبت الخمر جردتهم
من هذه القدرة ..

لا أذكر أي شيء عما كان يجري لي يا د. (ماتريك) .. قيل إن
قلبي توقف في غرفة الطوارئ ، وإتهم أجروا عملية إنفاقة قلبية

رنوية CPR لى ، وحققوا قلبى بالأدريينالين .. بعد هذا قلما
بإعادة جهازى الدورى إلى حالته ، وقاموا بتثبيت الكسور ..

الحقيقة أنتى تحولت إلى دمية هشمها طفل شقى ، واليوم فقط
يمكن أن أعتبر نفسى نجوت تماما ..

سوف أتخلص من هذين العكازين قريبا جدا .. انتزعوا ذلك
الأتوبوب اللعين من بين ضلوعى ، واليوم رأيت وجهى فى المرآة
لمعرفت أن الجروح لم تترك ندوبا واضحة ..

هذا هو مصير من يركب سيارة يقودها بريطانى سكران ..
أعرف أن الخمر ضارة جدا لكن على شاربها ، فما ذنبى أنا الذى
لم أثق فطررة واحدة فى حياتى ؟

نعم يا د . (مائريك) ..

فى الحقيقة لا أعرف سبب اهتمامك بقصتى ، ولا سبب تسجيك
لكل حرف أقوله ..

أعرف أنك طبيب نفسانى وأن هذا جزء من عملك ، لكن ما
قلته لك هو كل شىء .. أنت مهتم بشدة بهذه الرؤى التى رأيتها
وقت توقف قلبى ..

ما أستطيع قوله هو إننى عبرت إلى عالم الموت وعدت ..
 الانطباع العام الذى غمرنى هو الشعور براحة عظيمة .. رأيت
 كثير من وجوه أحبائى الأحياء منهم والأموات .. لكن هاجس
 نور فى نهاية النفق ظل يسيطر على ..

بصراحة أقول إنها كانت تجربة محبة .. لا ألم ولا خوف ..
 شعور هو أقرب للنشوة ، ولم يبدأ الألم فعلاً إلا عندما عدت لعالم
 الواقع ورأيت ما حل بجسدى ..

لا ياد. (ماتريك) .. لا أتعاطى أى نوع من المخدرات .. لم
 أجربها فى حياتى ولا أريد ..

بصراحة لو تكررت هذه التجربة فأنا راغب فى ذلك .. أرغب
 فى أن أجرب شعور الظل هذا من جديد ، وأن أرى نفسى من
 الخارج .. لكن لا حوادث من فضلك .. صحتى لن تتحمل المزيد
 من الحوادث فى هذا البلد ..

أنت أمريكى وبالتأكيد تفتقد وطنك هنا كما افتقد وطنى .. ثمة
 شيء ما لا يناسبنى فى هذا البلد برغم جماله .. ربما كان أول
 لقاء لى فى أفريقيا مع الكاميرون لهذا اعتبرتها بيتى بشكل
 لو بأخر .. على الأقل زوجتى هناك ، وأنا أحب زوجتى بحق ..

نعم .. رأيتها فى ذلك الحلم القريب ، لكن أهم شخص قُبِيت
هو أبى - ليرحمه الله - الذى توفى منذ عشرة أعوام تقريبا ..
كان يحتفظ بذلك الطابع الحازم المميز له ، وكان يقول لى إن
موعدى لم يحن بعد ..

بصراحة أعتقد أن تجربتى تتفق بالأرواح .. لا أرى تفسير
آخر .. روحى غادرت جسدى واستقطعت أن أراه على المنضدة
والأطباء يحيطون به ، لكن أجلى لم يحن بعد لذا عت ..
سوف أتأمل هذه التجربة طويلاً وسوف أكتب عنها ..

لكن فيما بعد .. فيما بعد .. مؤقتاً أنا راغب فى أن استعيد
صحتى وأن أمشى من دون عكازين ..
الآن أرجو أن تتركنى قائماً فعلاً مرهق من الكلام راغب فى
النوم ..

ربما نواصل الكلام فى الأيام القادمة ..

- 5 -

بدأت لستعيد قواى بسرعة ..

كنت أهاب الإصابات بشدة لأن المثل هو أكثر شيء يخيفنى ..
تصور أن ترغم (علاء عبد العظيم) كثير الحركة القلق كالذبيابة
على أن يبقى فى الفراش أياماً وشهوراً ..

الحمد لله أن الوضع لم يكن بهذا السوء .. كنت أقضى يومى
فى الفراش بين مشاهدة التلفزيون والنوم وقراءة كتاب
(بيلباتشر) الكابومسى أو قراءة شيء معل لوالتر سكوت .. كل
فصله التاريخية مملّة تناسب من يحتاج إلى زاد لا ينتهى من
الصفحات ، أو يريد أن يغفو حيث هو ..

لكنى كنت أخرج كثيراً جداً معتمداً على العكازين ، فاهبط إلى
الحديقة الخلفية للوحدة بعيداً عن زحام المرضى فى الحديقة
الإنامية .. هناك المكان خال صامت بذكرك بالمصحات النفسية ..

أمسى على العكازين فى تودة وأخيف الفراش الذى يحلق هنا
و هناك ، ثم يغلبتى الإرهاق فأجلس أتأمل حوض الأزهار هذا أو
ذلك .. أبحث عن أطلب منه كوباً من القهوة فلا أجد .. الكل هنا
مشغول بركض ويعرق فلا مكان لمرضى مدلل .. أنت بخير
بابنى ولن نسوت هذه المرة . إذن لا تعطلنا ..

من حين لآخر يأتى لى (فاسيلى) وخطيبته ليخبرالى أنها
أسفان وأنهما أحققان .. أو يأتى الطبيب البريطانى المخبر
(كارديف) ليعيد لى شرح الحادث ويبرهن على أنه لم يكن هناك
الخيار :

- « اسمع .. هذه هى سيارتى .. »

ويضع قطعة من الطوب على الأرض ..

- « وهذه هى السيارة الأخرى .. »

ويضع عليه مياه غارية فارغة فى المواجهة على الأرض ..

- « هكذا .. هى تدنو منا بسرعة .. نحن على خط واحد ..

لا يوجد حل سوى أن انحرف بالسيارة بأقصى سرعة .. عندما
تنحرف وأنت مطلق بسرعة ستين ميلاً فمن الصعب أن نقرر
السيارة على عجلاتها الأربع .. هنا تنقلب .. من طائفة السيار
أن .. »

أقول له فى تفاد صبر :

- « صدقتى .. لم أعد أذكر ولا أهتم .. »

- « لا دور للمكر هنا .. أى شخص كان سيعمل الشيء ذاته ..

المخطئ الوحيد هو سائق الشاحنة .. »

ثم ينظر إلى ساعته ويعلن أن وقت الانصراف قد حان ..

« هل تريد أى شيء ؟ »

« أريد أن أبقى وحدى .. »

رلى هذا ..

* * *

كنت امرأً بتجربة غريبة أريد أن أستكملها وحدى ..

للمكان المناسب لاستكمال هذه التجارب هو أن تكون وحدك
في حديقة غناء ، بينما الكل مشغول ولا أحد يتابعك .. فقط أنت
تسمع الصخب من الجهة الأخرى للوحدة ..

هذا الصخب يلعب دور الخلفية لخواطرِكَ ..

الحلم الغريب الذى مررت به عندما توقفت قلبى .. هل هو
الموت فعلاً ؟

كانت أمى تقول لى إن المحتضر يرى شريطاً كاملاً يستعرض
أعماله طيلة حياته .. لكنى لم أر هذا الشريط .. فقط رأيت النور
الساطع .. لو كانت أمى هنا لقالت لى إن هذا النور يدل على
أنى إنسان خير فى طريقه إلى الجنة .. لكنى لا أعتقد أن الأمر
 بهذه السهولة ولا أن الجنة قريبة لهذا الحد منى .

لكن التجربة هزتني من دون شك ..

ما زلت أذكر كل التفاصيل ، وبالتأكيد أنا راغب في استئذنها
من دون إصابات ..

النفق ..

النور الساطع في نهايته ..

صوت الأزيز ..

كل هذا بدا حقيقياً بطريقة لا يمكن وصفها ..

والآن أشعر بأن الحياة تستحق نظرة أخرى .. نحن نرفض
ونرفض فلا نجد لحظة واحدة نجلس فيها وننظر لأنفسنا .. كان
الحياة زمينتك في العمل .. أنت وهي مشغولان للأبد غارقان في
توترات العمل ومشاجرته .. فجأة تتوقف وترفع رأسك .. تنظر لها ..
فجأة تدرك أنها جميلة بحق وأنت تتعني لو كان هذا السحرت ..

هناك تفسير لكل هذا لكني لا أستطيع أن أمسك به ..

ذات الحيرة التي شعرت بها وأنا أشعر بأن وجودنا كله ثقب عبر ..

تضع قدمك على أول درجة من سلم عال سامع ، لكنك عاجز

عن استكمال الصعود ..

هنا يظهر د. (مالدريك) ..

يظهر بالمعنى الحرفى للكلمة .. أراه قادمًا من نهاية العمر بين أحواض الأكرهار وهو يدس يديه فى جيبيه .. برغم ضخامة جسمه المرعبة فهو مهذب هدى ، يلبس (بون أوفر) خاكي اللون له فتحة على شكل رقم (سبعة) تطل منها ياقة قميصه وربطة العنق الكاروهات .. عوينات خفيفة بلا إطار ورأس نصف أصلع .. لحية خفيفة بنية اللون ..

د. (جوزيف مالدريك) الأمريكى جاء إلى الوحدة قبل قدومى بشيرين ، وهو طبيب نفسى من (مئيسوتا) . لا أسرة له هنا فى جنوب أفريقيا ولا فى الولايات على قدر علمى .. لم يتعقد بيتا صداقة من أى نوع ، كما أنه رجل صموت أميل للتخفظ .. ربما مات فلا يعرف أحد ذلك ..

لكن (مالدريك) ظهر فى حياتى بقوة منذ أفقت من تلك للحادث .. فى البداية قال إنه يدرس (توتر ما بعد الحوادث) وأنه يريد أن يسمع منى ولا يعلق . ثم بعد فترة اعترف بأنه مهتم بما رأيته وعشت فى اللحظات التى توقفت قلبى فيها ..

« كيف حالك يا دكتور ؟ »

« بخير يا سيدى .. واضح أنني بخير .. »

جلس جوارى على المقعد الخشبي الطويل ، وإن تغلدى نضات
الطيور المبعثرة عليه ..

سألتى وهو ينزع عويناته ليخفف العرق عليها :

- « هل ستعود إلى الكامبيرون قريباً ؟ »

- « بمجرد أن أتعاقي .. نعم .. »

- « أنت سعيد الحظ .. أنا لم أر غرب أفريقيا قط .. »

- « هذه مزية أن تكون قابلاً للاستقاء عنك .. هم يتخلصون من
فى أى مكان .. مرة فى كينيا ومرة فى الفاتال .. ربما أكون لم
الكونغو المرة القادمة .. لو كنت مهماً أساوى ثقلى ذهباً لبقين
حيث أنا للأبد .. »

ضحك طويلاً ثم فعل الشيء الذى اعتدته كلما قابلتته ..

أخرج جهاز التسجيل ووضعه بيتنا .. ثم ضغط على الزر الأحمر ..

فكنت له فى هرج :

- « أنت لطيف ومهذب ، لكن موضوع تسجيل ما تقول هذا ينكرنى
بالمباحث الفيرانية أو جلست محامى الشركات .. بالصراحة لا أتم
براحة وهذا الشيء يراقب أنفاسى .. لاحظ أننى لم أوقع للتطوع
فى بحث علمى ما ، ولم أعطك تصريحاً بتسجيل ما أقول .. »

قال في حرج مماثل :

- « أسف .. افترضت أن هذا لن يضايقك .. »

لكنه ترك الجهال يدور معاً لثار غيظي ..

قال لي :

- « أنت وصفت كل ما رأيت .. لا أعرف إن كنت تدرك أهمية ما نقول أم لا ، لكنك شئت أو أبيت صرت حالة أخرى من حالات NDE .. »

بدالى الاسم مألوفاً فكررتة :

- « NDE ؟ وما هو ؟ »

- « أى Near death experiment .. تجربة الدنو من الموت ! »

★ ★ ★

- 6 -

في الأيام التالية جلست كثيراً جداً مع د (ماتريك) ، وعرفت منه الكثير عن تفاصيل هذه التجربة العجيبة التي مرت بها .. إنها ليست فريدة على الإطلاق .. كثيرون مروا بها .. ربما الملايين ..

فقط ظهر عالم درس هذه التجارب اسمه (ريمون مودي Raymond Moody) ، قضى من عمره 19 عاماً في درسا الظاهرة حتى صار الخبير الدولي الأول في هذا الموضوع ، وقد يرى ان هذه التجارب قد حلت السؤال الأبدى الذي عذب البشر : ماذا يوجد هناك ؟ (مودي) طبيب نفسي كتب عام 1975 كتاباً مهماً عن الظاهرة اسمه (الحياة بعد الموت) ، وقد باع هذا الكتاب عشرة ملايين نسخة .. يبدو أنه بالغ في وصف المبالغ التي تنتظر من يموتون ، حتى أنه خشي أن يغري كتابه المخالف بالانحجار .. هكذا كتب كتاباً ثانياً اسمه (صواء جديدة على الحياة بعد الحياة) تكلم فيه عن الانحجار ، وكيف أن تجربة الدنو من الموت تجعل المرء يتعمق بالحياة أكثر ..

(ريمون مودي) هو الذي اصطلح مصطلح NDE ولوكّل عاتق عربياً لصار اسم التجربة (ت د م) .. هذا المصطلح دخل الثقافة الشعبية الغربية بشكل غير مسبوق ، وصارت هناك مجلات طبية رصينة مختصة بأبحاث الدنو من الموت ..

إن التجربة كما يلي :

فى 12% من المرضى الذين يمرون بحالة توقف للقلب ثم عودتهم للحياة . تكون هناك هذه الذكري المبهمة عن الخروج من الجسد .. هناك صوت الأريز .. هناك ذلك الشعور العام بالسرور والسلام .. هناك النفق الطويل المظلم .. داعيا النفق الذى يوجد الضوء فى آخره .. ضوء ساطع يعنى العيون .. التدفق . ثم يعود المريض للحياة فيمر بتزعة صوفية .. يشعر بحقيقة العالم الآخر والاقتراب من خالقه ..

هناك قصة أخرى من تجربة تدعى (الخروج من الجسد) ، وهى التجارب التى يرتفع فيها المريض فى سماء الحجرة ويتمكن من رؤية جسده من الخارج .. يراه وقد وقف حوله الأطباء وربما الأقارب ليكون ..

غير أن التجربة ليست بهيجة فى كل الأحوال .. هناك من حكوا عن ظلام وعمليات تعذيب على أيدي شياطين أو أقزام ..

بين من مر بهذه لتجارب من المشاهير نجمة هوليوود (إيزابيث تايلور) التى مرت بهذه التجربة عام 1961 عندما نزلت قلبها نتيجة التهاب رئوى .. (شيللا) المطربة الفرنسية مرت بهذه التجربة ..

يرى المتدينون أن هذا هو الدليل على وجود جنة ولز ..
وهؤلاء الذين رأوا النار كانوا مؤمنين . وهؤلاء الذين عذبهم
الأقزام كانوا خطاة ..

تكونت مؤسسة اسمها (أيلاندس LANDS) لدراسة ظواهر
الدنو من الموت ، وقد أنشأت لها فرعاً في فرنسا تحت رئاسة
(لويس توماس) .. وقد وجد الباحثون فيها القالى لدى بعض
من الموت :

● 58 % يشعرون بالسلام النفسى والهدوء .

● 37 % يعيشون تجربة الخروج من الجسد .

● 23 % يدخلون النفق المظلم الشهير .

● 17 % يرون الضوء الباهر .

● 10 % يذوبون في هذا النور الباهر .

كثير ممن يمرون بالتجربة يلقون أقارب ومعارف لهم متوا
من قبل .. ثم يشعرون بأنهم يجتازون حدًا ما ، ثم تأتي لحظة
العودة لعالم الواقع .. غالبًا ما تكون مصحوبة برفض ونفور ..
يمكن القول إنتى مررت بكل شيء ! عندما أذهب إلى مدينة
الملاهى لأبد أن أجرب الألعاب كلها ولا أقنع بلعبة أو لعبتين !

أفرضنى (ماتدريك) كتاب (مودى) المسمى (الحياة بعد الموت) كى أقرأه .. وقد أمضيت وقتاً طويلاً معه ؛ لأثنى كنت أطلع كل فقرة مرة تلو المرة ..

بالنسبة لى لا توجد مشكلة ، فلنا أعرف ما سيحدث لى بعد الموت يقيناً من الدين .. لو رفضت هذا لكنت كمن يرفض الدين بالضرورة ، لكن الجديد بالنسبة لى هو أن يتمكن المرء من التثريب إلى هذا الحد والعودة .. أن تلقى نظرة وأنت تقف على الحراف أصابعك ثم تعود جرياً قبل أن تنغلق البوابة عليك ..

هل هذا ممكن ؟

لو كان ممكناً لكنت تجربة فى غاية الإثارة .. أما لو لم يكن فلا مشكلة .. إن عدم صحة تجربة NDE لا علاقة له بالبرهنة على وجود حياة بعد الموت فى رأى .. سطح الجيران موجود سواء كان بوسعك أن تزحف فوق سطح دارك لتلقى نظرة عليه أم لا .. فشك فى استراق نظرة لا يدل على شيء ..

كان أهم سؤال وجهته لـ (ماتدريك) هو :

« لا شك فى أن روح الإنسان واحدة .. فما السبب فى أننا معشر العرب لا نسمع الكثير من هذه القصص ؟ ربما نسمع عن

الشخص الذي يرى شريط حياته ، أو يرى أشخاصا ميتين
لكنني مثلاً العربي الوحيد الذي رأى التفتق على قدر عظمي ..

اهتسم ، وقال ما معناه :

- « من غير زعل ؟ »

- « طبعاً .. »

قال :

- « المسبب هو تقدم الطب في العالم الغربي .. تقدم رسل
إعادة الحياة للقلوب المتوقفة .. هكذا يعود أناس كثيرون يوم
بعد يوم من على الحافة الرهيبة ، ويحكون ما رأوا ، من ثم بعد
لم يحك شيئاً ومات بسرره .. اعتقد أنكم تفقدون الكثيرين من
توقفت قلوبهم .. »

بدا لي التفسير منطقياً .. ليس دقيقاً تماماً لكنه منطقي ..

كنت متحمساً وقد جلست لأكتب خطاباً طويلاً لبرنات لرسا
بالتيريد الإنكروني .. انتقيت عباراتي بدقة حتى لا يصبها لأعز
أنا مت لكن ليس إني هذا أحد .. هلكت لكنني لم أهلك جداً
تمزقت لكن ليس كما تظنين ..

لأنظ خصصت عدة صفحات أحكى لها فيها تفاصيل هذا الذى
رأيت ..

كما توقعت لم تنتظر البريد الإلكتروني وإنما اتصلت بى معربة
عن زعرها وقتئها ..

- « أنت مجنون .. لن تكف عن محاولة قتل نفسك ! »

قلت لها بالأمريكيين :

- « الجنون .. هذا هو اسى الأوسط .. »

كنت أشعر برضا وسرور لا حد له .. هى قلقة على .. هى
تموت زعرا .. كم أن هذا جميل !

قلت بعد ما انتهت من السباب الفرنسى الرقيق :

- « لى عمة مرت بتجربة كهذه .. إنها تحدث للكثيرين ..

لبعض يعتبرها هراء ناجما عن نقص الأكسجين الواصل للمخ ..

لبعض يعتبرها تجربة دينية مثيرة .. »

ثم ودعتنى مع وعد بأن أحافظ على حياتى إلى أن نلتقى ..

- « عنى أنك لن تموت قبل أن .. قبل أن أموت أنا .. »

لحقيقة أننى لم أف بالوعد تماما .. وستعرف السبب حالا ..

- 7 -

مزاجى بهبط ..

حالتى المعنوية تتدهور ..

أعتقد أنتى أعانى اكتئاباً شديداً هذه الأيام ..

لم أعد للعمل بعد وربما كان هذا سبباً مهماً ، لكنى بالفعل غر
راغب فى العمل .. غير راغب فى الاستيقاظ صباحاً .. غر
راغب فى العودة للوطن ..

غير راغب فى الحياة ..

فقط أمضى الساعات فى الحديقة الخلفية أتأمل الفراش وسط
الأزهار .. أحاول أن أفهم جدوى ما تقوم به .. منظر رائع سلام
جدير بأفلام (ديزنى) لكنى لا أرى فيه إلا المسخف بعينه .. أنا
شئ من الادعاء هنا .. الحديقة تعتقد أن عليها أن تكون جميلة.
وبما أنها تعرف أن الحقائق الجميلة تعج بالأزهار والفراش.
فإنها تفعل ذلك من دون أصالة ..

أتأمل المرضى فى اشمنزاز .. ماذا يريدون ؟ لماذا يعتقدون
أن عليهم أن يشقوا ؟ ما أهمية حياتهم ؟ هذه المرأة التى تعجز
فيما يشبه الدغل تجرع الفقر والمرض .. لماذا تعتقد أن عيها

ان تشفى من أمراضها ؟ لماذا لا تموت ؟ ماذا تركت لآينشتاين
 رافيرس وابن سينا ؟ هؤلاء هم العلماء الذين يستحقون أن
 يعالجوا ويشفوا ..

فكذارت أنتدر من حالة نفسية سيئة إلى أسوأ .. لولا
 لبنى لأقدمت على الانتحار ملأ ، وهو أغرب تصرف يمكن أن
 تفكر فيه أنا بالذات ..

كنت غارقاً فى هذه الهموم عندما قابلت د. (ماثريك) فقلت له
 نى راغب فى أن يكتب لى دواء للاكتئاب ..

ضحك من يتوقع هذا ، وقال لى :

- « إن أنت فى الطور إياه ؟ »

- « أى طور ؟ »

- « طور الاكتئاب .. لابد بعد المرور بتجربة NDE من فترة
 ملقبة وبهجة ، ثم يبدأ الاكتئاب .. »

- « والحل ؟ »

- « سوف أصف لك بعض مضادات الاكتئاب ، لكن أقول لك
 ن هذا ناتج عن سحر التجربة وخرابتها .. أنت رأيت بصرى
 ن هناك .. تريد أن تعود .. »

- « لابد من توقف قلبي ثانية ، لهذا تجدني غير متحضر للعودة .. »

هكذا كتب لي بعض أدوية الاكتئاب من صيدلية الوحدة، وأمر بصرفها ..

وبدأت أعاطي تلك الأدوية والتصقت بحياتي بشكل لا يصلح لكني بدأت كذلك أعنفق أنها هراء .. نوع من العجين الأبيض المجفف .. هؤلاء الناس يمزحون ولا شك .. أخبرته بذلك ففكر حيناً ..

ثم عاد لي بعد يومين .. كنت عيناها تلمعان بشكل غريب .. قال لي :

- « هل أنت مستعد لمفارقة الوحدة بضع ساعات مساء اليوم ؟ »

نظرت إلى ساقى والعكاز الذى أحمله وهزئت رأسى :

- « ربما .. نعم .. »

- « جميل .. سوف تأتى سيارة لك اليوم فى التاسعة مساء .. »

- « والغرض ؟ »

قال فى مكر ، وهو يضع إصبعه أمام شفته :

- نوع من جلسات العلاج الجماعى .. تعال وجرب .. بعدها
تكنم .. *

فى التاسعة مساء وقفت مستنذا إلى العكاز على باب وحدة
سافرى الرئيس أنتظر .. أرمى الطريق القرايى الذى يقود
لوحدة .. لم أر طريقاً ممهداً أمام أية وحدة (سافرى) عرفتها
لرئاستى ويبدو أن هذا جزء من تقاليد المهنة ..

رأيت سيارة (لاند روفر) بيضاء تدنو منى وهى تضىء
كشافاتها بشكل متقطع .. دنوت منها وانحيت على زجاج النافذة
الأسمر فرأيت رجلاً أفريقياً فى الأربعين من عمره يضغط على
لغة تبغ بين أسنانه ، ويسألنى :

- واضح أنك د. (عبد العظيم) .. «

- «أنا هو .. وأنت من طرف ... «

- «نعم . د. (هاندريك) .. اركب من فضلك «

أجوكله يوحى بالتأمر .. لن أندش لو كانت كلمة السر هى
(أمر القيل الأخضر من هنا ؟)

رأيت جواره وأنا أتساءل عن هذا البرنامج الذى يبدأ بتلك
طريقة ..

هذه أول سيرة أركبها منذ وقع الحادث .. لشعر بتهيب ورف
خاصة مع الليل .. لن أتدهش لو تكرر كل شيء بالحرف

لكن الرجل كان سائقاً مسالماً محترفاً ، وقد قدرت أننا ذهبنا
إلى (ديربان) .. بالفعل كان الأمر كذلك ، حتى أننا قطعنا
الطريق الذي قطعناه في تلك الليلة المشنومة .. فقط لم يمس
ذلك البيت المكون من طابق واحد ، وإنما قصد بناية من طابقين
أمامها حديقة صغيرة مهمة .. ودعاني للرجل ..

وعلى الباب وجدت .. (ماتريك) بجسده المعلق العليل ..
وكان يادى المرح ..

قلت له ، وأنا أدوس على العكاز بحرص :

« اسمع .. لو لم يتضح أنها مهمة تجسس أو حيلة لعبادة
الشیطان ، لظننت أنني أحمق ! »

قال ، وهو يساعدني على اجتياز مدخل البناية :

« لا تغلق .. هي مهمة مخالفة للقانون فعلاً ، لكنها لا تغلق
بالتجسس ولا عبادة الشيطان .. ربما نبدأ في شرب دم الأظلم
الرضع بعد قليل لكن ليس الليلة . »

صعدنا بصعوبة عبر درج ضيق إلى شقة في الطابق الأول ..
أول علوي كما نقول عندنا .. ودق الباب مرتين ..

لشقة كانت خالية من الأثاث تقريباً .. جدران مدهونة حديثاً ..
مقاعد متثرة .. سرير كشف طبي جوار الجدار .. لا يوجد
شراء آخر .. مزيج غريب من عيادة طبية وشقة تحت التأثيث
روكر عصيات و (غرزة) لتعاطى المخدرات .. لن أندش لو
ظهر نومرجى يحمل (جركن) بلاستيك ملاء بالماكستون فورث
ومدقنا .. ثمة ستار أخضر سميك يبدو أنه يفصل جزءاً من
الشقة عن الجزء الذى نجلس فيه ..

هناك الكثير من أقداح القهوة للفارغة متثرة على الأرض .. فى
كل أقداح أو فى طبقة لفتت عشرات الأعقاب من لفائف التبغ .. رائحة
الجوئل على أن هذه الشقة لا تستخدم للعلاج من إدمان السجائر ..
لقت المجموعة الجالسة تتكون من شابة غربية .. ثلاثة
رجال غربيين .. شابين من الأفارقة ..

كنوا ينظرون لى دون دهشة أو فضول .. فقط ينظرون ..

فل لهم (ملدريك) :

- « هذا صديقى العربى .. د. (عبد العظيم) .. قليقدم كل
منكم نفسه من فضلكم لأننى مرهق .. »

كذا بدأ كل واحد يقدم نفسه :

- « (مارى ماكلويد) .. صحفية .. »

- « (جيروم ستوارت) .. طبيب .. »

- « (كارل شتاينبرج) .. صحفي .. »

- « (جيرر شيفاليه) .. مدرس لاهوت ومبشر .. »

- « (بيكيسينا) .. معلم في مدرسة ابتدائية .. »

- « (أكبر موندهارات) .. حارس مصرف .. »

طبعاً تباينت اللهجات وإن كانوا جميعاً استخدموا الإنجليزية ..
يمكن القول إن لدينا بريطانيين وفرنسيين أو بلجيكيين وألمانيًا وأقرب
من الزولو وهنديًا .. الأسمر الأخير لم يكن أفريقيًا إذن ..

ما الرابط بين هؤلاء ؟ مهنة الصحفي تتكرر مرتين ، وهنا
المدرس تتكرر مرتين إذا اعتبرنا أن المبشر مدرس بشكل أو آخر ..
الآن صار هناك ثلاثة أطباء .. هل تستنتج من هذا شيئاً ؟

نظر لي (ماندريك) بعينه اللتين تشعان ذكاء ، وقال :

- « أعرف ما تفكر فيه .. لقد أجبتنا عن السؤال الأول (من

هؤلاء ؟) وبقي السؤال الثاني (ما الرابط بينهم ؟) »

ثم أشار لهم ، وقال بلهجة مسرحية :

- « كل هؤلاء عادوا من الموت مثلك ! »

- 8 -

قال (حيروم ستوارت) :

- « كنت أرى جسدى من أعلى وقد التف حوله المسعفون ..
كنت أرتفع وأرتفع .. لكنى لم أكن مسروراً أو منتشياً .. كنت
أشعر بأن هناك شيئاً خطأ وأن أوان تصحيحه قد فات .. لن
أستطيع العودة لهذا الجسد ثانية .. سوف أرتفع إلى أن أخترق
ملك الحجرة ثم أغيب فى عالم غريب مخيف .. »

قالت (مارى ماكلويد) :

- « أنا كذلك كنت خالقة موشكة على البكاء . »

قال (جيرار شيفالييه) ولكنه الفرنسية الشفيعه :

- « بالنسبة لى شعرت بنشوة وتمنيت ألا تنتهى هذه اللحظات »

صب (مئدريك) بعض العصير لنفسه وأشعل لفافة تبغ ، وقال :

- « كثيرون ممن يمرون بالتجربة لا يمرون بتجربة الخروج

من الجسد .. هما غالباً متزامنان لكنهما لا يعطيان الشيء ذاته ..
أحياناً تكون هذه التجربة ممتعة شبه صوفية ، وأحياناً ما تكون
مخيفة .. »

كنت أنظر للساعة .. إنها الحادية عشرة ليلاً .. سألته :

- « ما زلت لا أعرف الكثير عن تجربة الخروج من الجسد هذه .. »

- « نسميها اختصاراً بـ OBE .. أى Out of body experiment .. وهي كما قلت لك غير ثابتة في حالات الدنو من الموت .. كنت مررت بها .. إنها تتضمن الشعور بأنك تطفو في الهواء .. ترى نفسك من الخارج .. وهي تنتهي بالعودة للجسد ودخوله .. »

تذكرت فيلم رسوم متحركة مجرياً قديماً كان المتوفى فيه على العنقفة .. تصعد روحه للسماء ببطء فيشدها أحد الأطباء من ساقها ليعيدها إلى الجسد .. تكرر هذا عدة مرات فاضطر الطبيب إلى تقييد المريض لمنع روحه من الخروج ! ..

تذكرت هذا وابتسمت برغمي ..

قال د. (ماتدريك) وهو يتساءل في سره : (لماذا يبتسم هذا المخبول ؟) .

- « على كل حال هناك الكثير من الجدل حول ظواهر الخروج من الجسد هذه .. السويسري (أولاف بلانك Olaf Blanke) حصل على نتائج مشابهة عن طريق تنبيهه الفص الجداري

لصدغى فى المخ .. يمسسه بالقطب الكهربائى فيجد المريض نفسه يخلق فى فضاء الغرفة ويرى جسده .. عالم آخر هو (برزنجر Persinger) جرب وضع الأقطاب المغناطيسية على النصف الأيمن لدى المرضى .. وقد ظفر باستجابة مماثلة .. ليس هذا المحسب .. هناك من يجد نفسه يخلق فى الهواء عندما يجرب النوم دون فقدان الوعي .. هناك نوم من غير نوم كالذى يمارسه لدراس الليليون .. أنت نائم لكنك متيقظ كذلك .. هذا يجعلك نخلق ترى جسمك من الخارج .. أعنى أنك ترى ما تتصور أنه جسمك .. كل ما ينشط موجة (ثيتا) فى المخ بسبب رؤيا مثله ، وقد اخترعت مؤسسة (مونرو) جهازا ذا سماعتين معه (هيمى سنك) Hemi - Sync تضعه على رأسك فتسمع نبيات معينة نغرقك فى التأمل والاسترخاء .. بهذا يمكنك أن ترى كل شيء .. هناك عقارات كثيرة تحدث هذه الحالة .. كل ما يؤدى إلى حرمان حسي يمنعك من استقبال ما تقدمه لك الحواس ، يقوم العقل وقتها بتأليف مدخلات حواس جديدة .. أى أنه تسمع بلا أنف وتسمع من غير أذنين ، وتلمس من غير ليل ، وتذوق من غير لسان ، وتسمع بلا أذنين .. ليس هذا معيا أو غريبا .. تذكر أن هناك حالة مماثلة تمر بها كل ليلة ولنا نائم .. هذه الحالة اسمها (الحلم) .. «

انتهت المحاضرة ، فسألته بوضوح :

- « إذن أنت لا تعترف بتجارب الخروج من الجسد .. »

قال في حزم :

« لا أعرف .. فقط قلت إن هناك طرقاً كثيرة جداً لإحداثها ..
إن ألعاب المخ معقدة .. أنا كذلك لا أنكرها .. إن هناك من مرأ
بها ووصفوا أموراً رأوها في الغرف المجاورة . أموراً لا يمكن
أن تصفها ما لم ترها من أعلى .. لكن . لنقل إن هذا ليس
موضوع اهتمامي .. »

- « نفس الشيء ينطبق على تجارب الدنو من الموت ؟ »

هز رأسه نافية :

« لا .. لا يمكن تفسير الظاهرة كلها على أساس نفس
أو كيمياء . هناك تجربة غريبة مررتم بها ، وأنا ميل إلى أنه
ذات طابع ميتافيزيقي .. أنتم اقتربتم فعلاً من العالم الآخر ..
دخلتم إلى السعيد العفوس حيث سر الأسرار الذي حير البشرية ،
نعم عدتم .. »

سألته . وأنا أنظر إلى الجالسين :

- « أنت إذن تجمعنا كما يجمع غيرك الطوايع أو بطاقات البريد ..
 ما سبب هذا الاهتمام الغريب ؟ »

قال بلهجة ذات معنى :

- « أنا نفسي مررت بتجربة معاكسة .. والآن صار همى أن
 عرف .. أن أفهم ما رأيناه حقًا .. ما رآه كل منكم .. لهذا
 أجمعكم هنا .. ودعنى أؤكد لك إن هذه هى ليست المرة الأولى
 لتستقى فيها هذه المجموعة .. فقط هى أول مرة لك .. إن
 الأمر يتعلق بناد فريد من نوعه .. نادى العائدين من الموت ،
 الذين ما زالت التجربة تهزهم .. ربما بالحيرة .. ربما بمذاق
 يسر .. ربما بالرغبة فى أن يروا هذه الأحداث ثانية .. المهم
 أن جميعنا نلتقى هنا .. »

كنت قد بدأت أفهم ..

ارتجلت للفكرة ونظرت إلى الجالسين حولي ، فخمنت أنني
 على الأرجح على حق ..

عينهم المتسعة ونظراتهم لى قالت الحقيقة ..

رفعت رأسى ، وبصوت مبحوح سألت :

- « هل تكرر التجربة هنا ؟ »

قال من دون أن يبعد عينيه عني :

- « نعم .. »

- « وعلى من ينضم لهذه الجماعة أن يقبل هذا ؟ »

- « قد لا يقبله على نفسه .. أنت حر .. لكن يقبله بالنسبة
للآخرين .. »

- « وهذا يعني ؟ »

- « يعني أن ما تراه هنا سيظل سرًا .. لهذا نحن لسنا في
سافاري . أنا أجرى هذه التجربة على مسئوليتي الخاصة .
لذلك تلاحظ أننا ثلاثة أطباء الآن .. »

ثم نهض في تودة وأزاح ذلك الستار الأخضر الذي حيرني ..
حركة مسرحية ، لكنها أظهرت لي سرير فحص ومرقابا على
كومود جوار السرير ، والكومود عليه مفرش طويل يتف من
حوله .. هناك نازع استقطاب Defibrillator . بالنسبة لمن
ليسوا أطباء هنا أقول لهم إنه ذلك الجهاز الذي يثبتون لقطب
على القلب صائحين : إخلاء ! ثم يوجهون صدمة كهربية للقلب
المريض المتوقف .. أنتم ترونه في السينما بكثرة ..

هناك معائن .. هناك زجاجات أدوية .. هناك قناع أكسجين ..
هناك كاميرا فيديو مثبتة على حامل ..

لكل (متشريك) :

- « أعتقد أن الدور على شتاينبرج »

لقصة واضحة تمامًا ..

★ ★ ★

- 9 -

عارى الجذع على السرير يرقد (كارل شتاينبرج) الصطر
الألماني ، بينما نقف حوله ..

الحقيقة أن المشهد غريب يوحى باتنا نلف خاشعين له
لحظة احتضاره .. في الوقت ذاته تشعر بأنك في عاية مركزاً
في مستشفى ، لكن أية مستشفى تلك بهذه الجدران المتهلكة
والعصباح الواهن المعلق من السقف ؟ خليط غريب من الشعاع
والأماكن والأجواء حتى تحسب أنك تحلم ..

يثبت (ماتريك) أقطاب تخطيط القلب الكهربى بينما (شليبر)
يحاول أن يبدو مرحاً .. على قدر علمى هذا رجل يتأهب للوفاة
وإن كان يأمل في أن يعود منه .

ملت عليه ، وسألته :

- « لماذا تفعل ذلك ؟ »

قال ، وهو يتحسس معصمه :

- « لأننى أريد أن أرى تلك اللحظات مرة أخرى .. أريد أن
أعرف .. كأنه فيلم سينمائى لم تتابعه فى ظروف جيدة
مرة ، هكذا تتمنى أن تدخله ثانية . مبارأة فائق هدفها التوجه
هكذا تجلس لإعادة متنبه الحواس مرهق .. »

وبلألو لم تعد ؟ لم أسأله هذا السؤال طبعاً لكنى تعנית لو
فكت ..

لهذا وقفنا فى خشوع ننتظر ، بينما أولوج الطبيب البريطانى
لعنن فى عروقه .. كان قد ثبت قنّاة ورديّة تحسباً لما قد
يحدث ، ثم بدأ فى حقن سدة مخدرة ..

لا أعرف إن كان هذا المنطق يتناقض نفسه أم لا .. هكذا لن
يكون هناك وعى .. إذن ما قيمة التجربة ؟

عز كل حال ارتضى جفنا الرجل وهدأت حركته ، عندها جاءت
لعنلة الخطرة ..

همز (متدريك) أقطاب جهاز نازع الاستقطاب ثم أعلن لنا :
« إخلاء »

وألقى الأقطاب الرهيبة بصدر (شتاينبرج) ثم دوى صوت
أعمدة كهربية .. شلاك ! بوم ! انتفض الجسد بتلك الطريقة
أسيرة الشفلة ، ثم همد ..

وعز شاشة المرقاب تحولت الضربات المنتظمة إلى خط
مستقيم مخيف يوحى بالموت ..

لقد ترقف القلب !

هنا استعمل الجهاز بالعكس .. بدلاً من توجيه صدمة كهربية
لقلب متوقف كي يعمل ، تم توجيه صدمة لقلب يعمل جيداً
هكذا تحولت ضرباته إلى خط ...

إنه الآن على حافة الأبدية ..

عينا (ماندريك) القلقتان تراقبان عقرب الثواني ..

العرق يحترق على جبينه .. ينتظر بعض الوقت ..

تبادل للنظرات في توتر .. رائحة الأورينالين التي تشمها لوحوش
بسهولة ، ويبدو أننا صرنا قادرين على شمها بدورنا ..

بهمس اليريطاني (جيروم ستيفارت) في قلبي :

- « هلم .. لقد حان الوقت .. »

لو تأخر أكثر من اللازم لتأذى المخ من نقص الأكسجين ..
معنى هذا الموت .. في أحسن حالات - العته أو المص أو الشلل -

ياخذ (ماندريك) نفساً عميقاً ويقرغ شيئاً في القناة الوريدية ،
ثم ينظر إلى شاشة المراقبة حيث يرسم الخط الطويل المنفرج
بالنهاية .. يقول لنا وهو يمسك بالقطاب ..

« إخلاء » .

لذا هي طريقة (فرانكنشتاين) فى الرواية الشهيرة .. طريقة
فى ساعة المتوقفة لتعمل .. نفس الشيء يتم هنا بشكل عملى ..
لفرانكنشتاين استخدم الكهرباء لهذه الساعة .. البرق بالتحديد .
نفس الشيء يتكرر هنا كذلك .

من جديد يلصق الأقطاب بالصدر . ثم شلاك ! بوم ! ينتفض
الجسد بتلك الطريقة المثيرة للشفقة ، وفى هذه المرة نرى على
لشنة أن مسيرة الجمال قد بدأت .. القلب عاد يدق ..
تنفس الصعداء .. بينما يثبت (مائريك) القناع على وجه
لمريض ..

الأخير يسعل .. يحاول النهوض ..

فى النهاية بدأ يهدأ وتنفسه ينتظم ..

أخيراً فتح عينه ونظر لنا نظرة زائفة ، وهتف :

« كم الوقت الآن ؟ هه ؟ كم الساعة ؟ هه ؟ »

لللهربطانى فى برود :

« أنت غبت عن الوعي دقيقتين ! »

.. « حسبت أنني هناك منذ أيام ! »

هذا معتاد على كل حال ، ومن الواضح أن الإحساس بالزمن هو أول ما ن فقدّه عندما نفقد الوعي .. أو أن الزمن نسبي فعلاً ، ربما كان زمنه هو الصحيح وكانت ساعاتنا خلّاعة ..

هناك الزمن الذي غاب عن الوعي فعلاً وهو دقيقتان ، هناك الزمن الذي استغرقت تجربته وهو في رأيه أيام .. هناك الزمن بالنسبة لنا ونحن نراقب التجربة ، وهو عدة قرون !

صاح وهو يبكي بدموع حارة غزيرة :

.. « أنا كنت هناك ! لقد رأيت النفق ! »

- 10 -

بالفعل رأى النفق ..

حتى لنا هذا كله وهو يستجمع قواه ..

كثت القصة مألوفة .. الظلام .. الأريز .. الطيران .. النفق ..
 رها نم تسجيله وهو يحكيه .. وقد استغرق ربع ساعة فى هذا
 مرد الذى بدا لى مألوفاً .. وقد قال لى (ماتريك) بعدها :

- « هذا حظ حسن .. لا يمر كل من يجتازون هذه التجربة
 ان اللحظات .. أحياناً لا يحدث شيء .. »

قلت له من دون حماس :

- « جميل .. لكن كلامه معتاد أكثر من اللازم .. كلام أسمعته
 كثيراً .. »

- « ماذا تريد قوله ؟ »

قلت فى حذر :

- « ما دور تأثير قصص العائنين من الموت على من يحكون
 هذه التجارب فيما بعد ؟ أنت تعرف أن الطبيعة تفقد الفنان .. »

- « أوسكار وايلد Wilde .. »

- « نعم .. من هه سوف يعود المرء من تجربة توقف القلب ليحكى لك ذات الأشياء .. هو لم ير شيئاً لكنه تخيل أنه رأى ما قرأ عنه آلاف المرات .. هناك من قال إن السكرى يرون أحياناً وردية ، وهكذا صار واجباً قوياً على أى سكير أن يرو أحياناً وردية .. »

نظر لى مفكراً ، وقال ما معناه (وجهة نظر) ، ثم أضاف :

- « أنت رأيت التجربة .. هل لك خبرة بها من قبل ؟ »

- « لا .. »

- « هل قرأت عنها الكثير ؟ »

- « بصراحة .. لا .. قرأت القليل أو لا شيء .. »

- « إذن من أين رأيت ما رأيت ؟ من أين جاءت الأفعال

الوردية ؟ »

- « لا أعرف .. »

- « إذن من الوارد أن السكرى يرون أحياناً وردية ، ومن

الوارد أن من تتوقف قلوبهم يجتازون وفقاً .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وقال :

- « ثراحدة صباحا .. أعتقد أن علينا أن نعود إلى سفارى ..
سوف توصلك السيارة معا .. »

ثم صاح فى الجالسين وفى الرجل الراقد على سرير الفحص
والذى صار قادرا على الجلوس :

- « سوف نعود يا شباب .. موعدنا الخميس القادم ! أرجو
أن تتأكدوا من د. علاء حصل على أرقام هواتفكم وطريقة
الاتصال بكم والعكس .. إن التواصل مهم جدا هنا ، ونحن نرغب
فى أن تكون العلاقات البشرية مستمرة .. »

ثم أشر إلى الفتاة البريطانية :

- « دورك هو القادم يا (مارى) .. هل أنت موافقة ؟ »

فزت رأسها فى مزيج من الشفور والشفف .. هى تريد ولا تريد ،
تشعر بكليهما بشدة .. الطفل الذى يشتهى ركوب القطار الأنفوسى
على كل عضلة فى جسده تأبى ذلك .. لماذا تقبل ذلك ؟ لأنها تريد
أن تعيش التجربة من جديد وتتحدى معا فاتها .. نفس ما قاله
الأممى .. لأن هناك نوعا من الإدمان فى هذا الذى حدث ..

ثم إن (ماتريك) قال للبريطانى وهو يشير إلى (شتلينبرج) :

- « هو لن ينصرف إلا فى الصباح .. لن نطمئن على رحيله .
سوف نقضى معه الليلة كما اعتدنا .. »

هز البريطاني رأسه موافقاً ..

بعد دقائق كنت في السيارة جوار (مائريك) بينما السائق
الأفريقي ينهب الطريق المظلمة عائداً لوحدة (سافاري) ..

جاء يوم الخميس ليجد السيارة تنتظرني ..

نفس الرحلة الغربية في الظلام إلى ذلك البيت في (ديربان) .
عندما صعدت هذه المرة لم تكن هناك أسئلة .. لقد صرت
أعرف السائقين جيداً وصاروا يعرفونني ، وثمة علاقة ما بين
المودة شات بيننا .. نحن متفاهمون تماماً .. كنا جرب هذه
التجربة الغربية ولم يعد محتاجاً إلى الشرح .. الناس بالخارج لن
يفهمونا لكننا نفهم بعضنا جيداً ..

أشار (مائريك) إلى تلك الفتاة (ماري ماكلويد) فنهضت
لتأخذ دورها . كانت متوترة ومعها الحق لكن شيئاً من الشفق
كان يميز سلوكها .. كانت تلبس بلوزة خفيفة فكان من السهل
أن تلتصق الأقطاب من تحت الثياب ، ثم تدثرت بالملاءة جيداً
ونامت على سرير الكشف ..

جثا البريطاني - الذي أنسى اسمه باستمرار - جوارها وحققه
في القناة الوريدية ، ثم انتظرنا حتى أغمضت عينيها ..

جاء نور الصدمة الكهربائية للقلب .. أدخل (مائريك) يده
تحت الملاءة وصاح بنا :

« إخلاء ! »

ثلاث يوم !!

تنفّس الجسد .. وبدأت رحلتها ..

جيروم سيوارت .. اسمه جيروم سيوارت .. الآن أتذكر ..

من جديد ننظر لعقارب الساعة .. من جديد نحبس أنفاسنا .

ثم أعرف من قبل شيئا يمكن مقارنته باللعب بالنار مثل هذا ..
أن ترسل شخصا إلى حافة الموت ثم تحاول أن تعيده ..

عقرب انشواني يتحرك .. يتحرك .

ثم بصيح البريطاني أن الوقت قد حان ..

يفرغ المحقن في ذراعها ، ثم يضع الإقطاب ويأمرنا بالإخلاء ..

بور !

لكن القلب لا يستجيب ..

مازلت نبضاته ترسم - أو لا ترسم - تلك الخط المسطح الممتد
على شاشة المراقب !

- 11 -

كان في منيسوتا في ذلك الوقت ..

منذ عشر سنوات .. الطبيب النفساني الشاب (جوزيف ماندريك) .. ضخم الجثة رقيق الطباع كطفل ..

الوالد متوفى ، وهو يقيم مع أمه .. العجوز الأمريكية الراقية ذات العيونات والشعر الأبيض كالثلج .. صغيرة القد جدًا حتى ليندهش الناس من كونها رزقت بطفل بهذا الحجم ..

أم رقيقة أمريكية جدًا ، لكنها عرفت بالفعل كيف تسيطر على كل مفاتيح حياته .. أناملها تتقلقل في كل شيء ..

لم يعرف فتاة إلا وتفحصتها في عناية ثم تخلصت منها (لأنها رقيقة أو بلهاء) .. كل صديق يدعو له لداره كان يخضع للحصن دقيق ينتهي لطرده غالبًا ..

أم أمريكية رقيقة ، لكنه كان في قبضتها ..

بحكم عمله كطبيب نفسي قرأ الكثير عن السفاح الأمريكي (إ. جين) ، ولما ذهوبه أن سبب كونه سفاحًا هو ارتباطه الشديد بأمه .. لقد مرضت المرأة ففقدت أي قدرة له على مواجهة العلم ، ثم توفيت فلم يستطع أن يسمح لها بأن تدفن .. فيما بعد صار

سلفا بسنخ جنود ضحايا لىصنع منها عباءة واسعة يلبسها
 امام المرأة فتشعره بان أمه موجودة ! هذا السفاح هو الذى
 أوحى لروبرت بلوخ Bloch بقصة فيلم (ساينكو) فيما بعد ، وهو
 الذى أوحى بسفاح فيلم (صمت الحملان) ..

بالطبع لم يبلغ (ماندريك) هذه الدرجة من الحماس ، لكنه
 كان يقرأ هذه القصص ويرتجف من الخراب النفسى الذى يمكن
 أن تسببه سيطرة الأم أكثر من اللازم ..

فى مجتمع مثل أمريكا يصير من الطبيعى أن يهجر الفتى
 البيت فى التاسعة عشرة أو أقل ، لكن فكرة كهذه لم تخطر ببال
 (ماندريك) قط .. لقد ظل يعيش فى البيت حتى الثلاثين .. لم
 يتزوج ولم يعرف أية فتاة ..

فى البداية كان يروق للفتيات باعتباره (الفتى الضخم الوسيم) ،
 ثم كن يتعرفن به أكثر فيشعرن بأنه ابن أمه بالمعنى الحرقى
 للكلمة .. هكذا يهربن ما لم تقم أمه بدور طردهن ..

هذه هى النشأة الغربية التى نشأها (ماندريك) والذى زادها سوءاً
 ما درسه فى علم النفس .. عندما يصير المريض النفسى طبيباً
 نفسياً فإن حالته تتفاقم .. لن يعالج نفسه كما فعل فرويد ..

هكذا فى سن الثلاثين قرر (ماندريك) أن يتمرد ..

كانت أمه واقفة في المطبخ تعد الحساء الذي يحبه .
دخل إليها وهو يحمل حقيته فنظرت له بدهشة ..
قال لها :

« أماء .. لتجعل هذا سهلاً . أنا راحل ! »

السيدة صغيرة الحجم الرقيقة تنظر له في ذهول :

« راحل ؟ إلى أين ؟ »

« لا أدري .. لا أعرف من أين أبدا لكنني سأجرب حتى

بعيذا .. »

« أنت مجنون .. لن تستطيع أن تعيش وحدك يوماً واحداً .. »

« ربما أعيش يومين .. ساري .. »

واستدار مبتعداً .. يا لك من جاحد أحمق ! أنا التي أقف كل هذا
الوقت أعد لك الحساء الذي تحبه ! أنت مجرد طفل . طفل يبول
على نفسه ويبلل سراويله ولا بد من تبديل حفاظته .. لو اعتنيت
للحظة أنك ستعيش يوماً آخر وحدك فأنت ساذج ..

تقف تراقبه من على باب المطبخ الخلفي وهو يبتعد بحليته

وسط أحبال انفصيل ..

تصبح بأعلى صوتها :

- « لراهن أنك نسيت الجوارب ! أراهن لك نسيت آلة الحلاقة ! »

الحقيقة أنه تذكر الآن أنه لم يأخذ معه الجوارب ، لكن
المشكلة . سوف يجرب شراءها بنفسه .. لم لا ؟ لن يقتله
البيع أو تسخر منه الهانعات ..

تصبح :

- « كل هذا من أجل الفتيات أيها المائع المنحل ! »

فتيات الشقراوات المانعات اللاتي لا تعرف الواحدة منهن
كيف تنف ساكنة ربع دقيقة .. الفتيات اللاتي يلعبن الشورت
والجوزيت القصيرة .. الفتيات اللاتي يدمرن الرجال الضخام
لمذبح مثل ابنها ..

لكن صوتها يخفت وهو يتعد ..

يتعد ..

يتعد ..

(إبريك بالمر) أخبرها ..

هذا مؤكد ..

لقد أقام عند صديق عمره (إريك سالمر) الذي كان قد طلق زوجته منذ زمن . انتزع وعداً من صديقه ألا يخبر أمه بمكثه .. سوف تتصل . أنا أعرف هذا ..

ينظر له (إريك) بوجهه الخمول البدين ، ويسأله :

- « إذن .. أنت مختبئ من أمك ؟ »

- « نعم .. »

- « هذه السيدة الرشيقة الضليعة ؟ وأنت في حجم (كينج كونج) لو أصيب بالتعلق ؟ »

- « نعم .. »

ينظر له (إريك) من جديد في دهشة ويكتم خواطره ..

لقد مرت الأيام . وهو لا يذهب لعمله منذ فترة .. فقط يضع الخطط كي يذهب إلى أفريقيا ليكمل في تلك الوحدة الغامضة المدعوة (سافاري) .. مراسلات مع (واشنطنجون) ومع المركز الرئيس في النمسا ..

عندما دق جرس الهاتف ..

كان وحده في الشقة ، ولم يعرف ما يجب أن يفعله .. لقد
اعتد ألا يرد على المكالمات .. لكن في هذه المرة شعر بشيء
أقوى منه يدفعه إلى رفع السماعة ..

وضع السماعة على أذنه وظل صامتاً ..

هذا صوتها .. صوتها الواهن المبحوح :

- « هاللو .. »

ظل صامتاً وقلبه يوشك على الخروج من ضلوعه .. ما كل
هذا الجبن ؟ كل هذا الذعر ؟ لم ير هذا الهلع من قبل إلا لدى
هزات أقدام الرعب الوحيدات اللاتي يتصل بهن السقاح ..

جاء صوتها من جديد :

- « جو .. أهذا أنت ؟ »

لم يرد ..

- « جو .. »

كان يعرف أنه لو رد لتكلمت . وعندها ينتهي كل شيء .
سوف يحزم حقيبته ويعود للبيت كما كان .. لن يقدر على
التأقمة ..

هكذا وضع الساعة ..

* * *

فى اليوم التالى جاء (إريك بالمر) يبلغه بالخبر .. أنه قد مات !

لا يعرف أحد ما حدث .. فقط كانت هناك فى المطبخ على الأرض وفى يدها ساعة الهاتف .. يعتقد رجال الشرطة أنها شعرت بمبادئ نوبة قلبية فطلبت رقم ما لينقذها لم تطلب 911 بل طلبت رقمًا ما

رقمًا ما ..

وفى الأيام التالية زارته مرارًا فى المنام .. كانت تنظر له فى صمت وتبسم .. نفس ابتسامتها عندما شمت رائحة التبغ فى غرفته لأول مرة وهو مرافق ..

كان يتوقع أن يصاب بشلل هستيرى أو يجن لكن شيئًا من هذا لم يحدث . تكفل الدفاع فى عقله الباطن بمحو الصورة . صورة السيدة الضليلة المسنة ملقاة على أرض المطبخ وتطلب ابنها تكلمه فى رفق كى لا تتير ذعره .. لكنها تعرف أنها تموت ..

هذه الصورة قد انمحت من خياله .. بالطبع يجب أن يحدث ذلك وإلا جن ..

وجيها الرقيق يطارده أثناء النوم .. يطارده في كل خطوة ..
يطارده في الطائرة . يطارده في جنوب أفريقيا ..

ثم حدث الحادث الشهير عندما كان بيدل أحد المصاييح في
ثفته في ديربان ..

لذا صغفته الكهرياء وتوقف قلبه بعض الوقت ..

ثم استطاعوا أن يعيدوه ..

ما أثر جنونه هو أنه لم يرى أي شيء .. لم يحدث له أي
شء في لحظات توقف القلب تلك .. لقد كان ناعسا ثقيلًا
بلا أحلام عاد منه .. ثم يتذكر أي شيء ولم يرو أي شيء ..
أصله الجنون وخيبة الأمل ..

نظمتا توقع في لحظات كهذه أن يرى أمه .. كلهم يفعل هذا ..
لأنهم يروها في تلك اللحظات فمتى ؟ سوف يجثو أمامها ويطلب
المحبة ، وسوف تفهم وتتسم ..

عندها تزول الرؤى وتكف عن زيارته في منامه ..

مذاقل يتابع باهتمام كل ما قرأه أو سمعه عن ظاهرة الـ NDE
لرسل (ريمون مودي) عدة مرات .. كلما سمع عن شخص مر
بهذه التجربة ورأى أحبائه شعر نحوه بحسد عظيم ..

هذا كان مشروع عمر (مائريك) ..

لقد قام بتكوين ناد صغير يضم هؤلاء الذين مروا بهذه الخبرة ..
الذين اقتربوا من الموت وعادوا .. من هنا يبدأ البحث ويعرف
ما هو أكثر عن تلك الظاهرة ..

يجب أن يقتنها ..

يجب أن يفهمها ..

يجب أن يرى أمه ولو لحظة واحدة ..

- 20 -

هذه المرة أولج إبرة (الأديفانين) بين الضلوع وشعر بعضلة
القلب تعرض الإبرة .. أولج الإبرة وحقق ..

بينما كان الطبيب الهريطاى يوجه ضربات للصدر ..

نظر لى الألماتى فى عصبية ، وقال :

- « وأنت ؟ لماذا لا تساعد ؟ »

هذا صحيح .. هناك ثلاثة أطباء فلماذا يعمل اثنان فقط ؟

كان هناك جهاز (أمبو) الخاص بالتنفس الصناعى فوضعت
العار جانباً ، وجلست على مقعد وأوشكت على البدء ، لكن
(الماريك) صاح مفضياً :

- « أنت تريد متاعيتنا هنا .. اجلس من فضلك ! »

كم مر من الوقت الثمين ؟؟ كم بقى ؟ هل تأخرنا أكثر من
الزمن ؟

- « هلم .. استجيبى أيتها الحسنة .. استجيبى ! »

فجأة بدأ المرقاب يصدر صوتاً .. نظرنا غير مصدقين فرائنا
لمرجت لرسم عليه من جديد .. لقد عاد القلب ينبض ..

فتحت عينيها وانقاع على أنفها . فصاح (ماتريك) :

- « لا تنهضى ! »

هكذا استمرت عملية الإحياء بعض الوقت . بينما الباقون يلتفون حولنا في توتر يراقبون ما يحدث ..

إنها تسعل .. تنفث .. تنن ..

من جديد أصدر (ماتريك) تعليماته للطبيب البريطاني - الذي أنسى اسمه - أن يبقى معها حتى الصباح ، وأشار لي كي ننصرف ..

- « هذا الذي تقوم به هو الخطورة بعينه ! »

كان هذا أول ما قلت ونحن في السيارة .. كان أقرب إلى انفجار عصبى لا يبقى ولا يذر ..

- « المجازفة بحياة البشر من أجل روى .. ما قيمة هذا ؟ لن يجيب عن سؤال واحد . كل منهم سيعود ليتكلم عن النفق ، ولم قد تكلم عنه من قبل فما الجدوى ؟ من بلغ مرحلة أبد من هذه التي تعرفها قد مات ! أى إنك لن تسمع حرفاً إضافياً ! »

لم يرد وراح يتأمل معالم الطريق المظلم ..

عدت أقول بذات العصبية التي لم يعرفها عن طباعي بعد :

- « لقد كنا نفقدها .. أعتقد أنك ستفقد واحدًا من هؤلاء بسهولة . ومن أجل ماذا ؟ »

هنا نظر لى ، وقال ببرود :

- « هل يعنى هذا أنك لن تخوض التجربة ؟ »

- « لن أخوضها ولا أريد أن يخوضها أحد .. »

- « هذا ليس من حقك .. الأمر يتعلق بالحرية الشخصية لعدد من البالغين .. »

قلت فى حزم ، وأنا أنظر خارج النافذة :

- « ليكن واضعًا لئكم تتلاعبون بالحياة البشرية إلى حد مفرط .. وهذا ما لا أقبله .. »

أشعل لفافة تبغ وتظر لى .. عيناه تلمعان فى الظلام وهو يقول :

- « هذا الذى رأيته يحدث مرة كل ثلاث مرات .. لم تعد نفقد أعصابنا من جراء هذا .. »

قلت فى حزم :

« لا أريد أن أكون سمجاً .. لكن واجبى بقضى بأن أبلغ
إدارة الوحدة عن هذا الذى رأيته .. »
كما تشاء ..

ولربعت الحفة اتبع فى فمه .. بدا كله على وشك لتهامى ..
انتظر لحظة حتى استجمع أعصابه ، ثم قال لى :

« لنا أيضاً لا أريد أن أكون سمجاً ، لكن أسمح لى بأن أذكرك
بأنك شاركت فى تجربة كاملة .. تجربتين .. كنت تعرف ما يحدث
وخبرتك الطبية تسمح لك بذلك ، ورغم هذا شاركت .. شاركت
وانتزمت المصمت .. لدى الشهود على ذلك ولدى شريط فيديو
يظهرك وأنت تشارك فى التجارب ؟ »
« هل هو التهديد ؟ »

« لا اعتبره تهديداً .. أنا فقط أعرف على نفس النغمة التى
عزفتها أنت .. »

كان على حق .. على حق بشكل تام ..
وعرفت أن هذه غالباً آخر مرة أقصد فيها هذه الاجتماعات
الرهيبه ..

لقد انتهت علاقتي بجمعية العالدين من الموت ..

كانت جلسة طويلة مع الخبير القانوني في (سافاري) في مكتبه المغلق ..

كان أفریقياً يدعى (جورج كاموهيلو) وهو رجل وقرّر بذكرك بروحه اللغة العربية في مدرستك الثانوية .. نظرة صارمة وشارب رفيع أبيض وجوينات سمكة وبذلة أنيقة .. تسر قانوني حنبلي يوحى بالثقة والعلم ..

سمع قصتي بالتفصيل وهو يبحث بالقلم الجاف الذي يصدر (تلكة) إياه ..

بعد ما انتهيت من رأسه في أسى ، وقال :

« لماذا سمحت لنفسك بالتورط في هذا كله يا دكتور ؟ »

كنت في ارتباك :

« إنه الفضول أولاً .. الفضول والدهشة .. ثم تطبيق لنُدرِكَ لك فعلاً حضرت أول تجربة وشاركت فيها .. »

قال مفكراً :

- « هذا بسبب لك الكثير من المتاعب فعلاً .. أعتقد أن الطرد من الوحدة أمر وارد .. لا أعتقد أن عليك ذنباً قتلونياً لكن الخطأ الإداري فادح ، فأنت تعلم من الخبرة ما يسمح لك بتقدير خطورة هذه اللعبة .. رأيي الخاص أن تنسى الموضوع .. ابتعد عنهم . هم سيبتعدون عنك .. لو حدث خطأ سيدفعون هم ثمنه من دون توريطك .. أما لو تكلمت فليسوف يكون أول دفاع لهم هو أنك شاركت .. »

- « ومذا عن أول المتوقفين ؟ سيكون هناك واحد حتماً ولنكون نكون مسئولاً عنه .. »

- « لا أعيرك مسئولاً عن أي شيء .. »

عندما خرجت من عنده شعرت كأنني نلت صدك غفران من صكوك القرون الوسطى ، عندما كان الخاطئ يذهب إلى الكنيسة الكاثوليكية ليشتري بماله صكاً يثبت أن الرب قد غفر له خطيئته شيء لا قيمة له لكنه يريحني شخصياً .. يمكن أن أزعم للنفس أنني طلبت رأي من هو أكثر خبرة وكان رأيه أن أخرس ..

ساخرس ...

- 13 -

الآن يمكن القول إننى تخلصت عن العكازين أخيراً .. أمكننى أن أغلر الحديقة التى كانت محبسى وأنضم إلى آلة سافارى للرؤية ..

رحب بى الجميع ، وبخاصة من كانوا سبب الحادث .. وقال لى (لجاسي) إنه اكتشف أننى مهم إلى حد ما .. لهذا أصر على أن أحضر معه جراحة عظام يودى فيها دوراً مهماً ..

كنت قد استقلت إلى غرفة الجراحة .. هذا الجو المعقم المتوتر أسحر .. حيث تشعر بأنك تغير بيدك أشياء ، بينما الآخرون ينتظرون أن يرضى عنهم انعقاد ويعمل ..

هكذا اجتزت إجراءات التعقيم ، ووقفت هناك جوار منضدة العمليات بينما انكشافات تسلط على عظمة الفخذ المهشمة لدى مريض مسن ..

طبيب التخدير الألماني (أرتور جورجين) يراجع أجهزته وفراطيمه ، ثم يثبت القناع على وجه المريض .. يضع هو نفسه القناع على وجهه فتبرز لحبته الكثة من الجانبين مما يظنك انطباعاً مضحكاً بأنه غوريلا تجرى جراحة ..

جولاه ينفذ مساعده الألماني بدوره (بيتر شىء ما) .. وهما يبدآن حديثاً سريعاً بالألمانية لا تفهم حرفاً منه ..

بينما بدأ الجراحون العمل سألت (يورجين) على سبيل
الدعابة :

- « هل هناك قتلون يحتم أن يكون كل أطباء التخدير هنا أعمى ؟ »

قال ضاحكا من وراء قناعه السميك :

- « كنا أكثر من هذا .. لقد فقدنا (كارل) كما تعلم .. »

- « كارل ؟ »

- « نعم .. (كارل شرايدر) .. المسكين .. »

هنا قال الجراح المعنهمك في شق الجرح :

- « لقد قتله الإنسان .. »

قال (يورجين) في غضب حقيقي :

- « لا تقل هذا .. لا أحد يدمن الـ DDT في رأيي .. لكي تتعاطاه

يجب أن يكون هناك من يحرسك .. من يسمونه (حارس الرحلة)

لأن أحدا لا يضمن م قد تفعله بنفسك .. »

- « مثل عقار الهلوسة LSD .. عندما يتعاطاه أربعة يجب أن

يستمع واحد منهم عن التعاطي ليراقب الثلاثة الآخرين .. قد يقتلون

أنفسهم أو يحدثون في قرص الشمس إلى أن يصابوا بالعمى .. »

- « هذا هو ما يحدث مع DMT .. لا أحد يتعاطاه وحده ..
 قبلون هم من يأخذونه حقناً .. أغلبهم يشمه شماً .. »

- « هل يمكن تعاطيه بالفم ؟ »

- « فقط مع جرعة من مثبطات إنزيم الـ MAO .. وإلا لن
 يحدث أى تأثير .. »

هنا تدخلت فى المحادثة :

- « من تكلم عن هذا العقار هنا ؟ ما دخله بوفاة الفقيد ؟ »

- « الطب الشرعى أثبت وجود آثار من عقار DMT فى
 المحقن .. ومن الغريب أنه كان يحمل فى جيبه مورفيناً ، ولهذا
 افترض الجميع أن المحقن يحوى المورفين .. »

ثم هز رأسه فى حيرة :

- « اتساءل من أين جاء بكل هذا الـ DMT ليتعاطاه ! إنه
 عقار نادر فعلاً .. »

ولكن ضغط الدم للمريض النائم ، ثم قال :

- « لا بأس .. كنا نتكلم عن العقار .. إن تأثيره غريب كذلك .. من
 يعاطوه يحكوا قصصاً غريبة عن أطباء طائفة اختطفتهم ، وعن
 ظيرون فى ظلام أسود .. تفق أسود طويل لا نهاية له ثم ينتهى
 بنور ساطع مبهج ! »

نظرت له في دهشة ، وسألته :

- « لكن هذا هو بالضبط ما يقوله من يمرون بالـ NDE ..
تجربة الدنو من الموت .. »

- « بالضبط .. لهذا يرى علماء كثيرون أن تجربة الدنو من
الموت كيميائية في الأصل ولا علاقة لها بالعالم الآخر .. »

مكتبة وحدة سافاري هنا فقيرة كما وجدتها في أية وحدة
أخرى ، لكنني لم أكن أبحث عن معلومات متحلقة .. أريد قشرة
تضيء لي طريقى .. ومن الممكن جداً أن تجد القشرة هنا ..

كنت طيلة حياتي أمقت علم الأدوية .. أعتبره ثمرة الزواج غير
العقنس بين علمي وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية .. نتيجة هذا
الزواج غير العقنس كائن شيطاني شرير يمكن أن يحيل حياتك
جحيماً ..

هكذا بحثت عن عقار الـ DMT الذي أعترف بأنني لا أعرف
سوى اسمه ..

وجدت معلومات غريبة فعلاً :

يعتبر الدكتور ريك شتراسمان Strassman حجة عائلية في
عقار الـ DMT وقد وجد أنه ينبعث من الجسم الصنوبري في
السخ بكميات هائلة لحظة الوفاة .. هذا يؤدي إلى هلاوس محببة
تجعل لحظة الموت محتملة ..

مادة DMT هي اختصار للفظـة Dimethyltryptamine وهو كما
يؤمى الاسم من مشتقات التربتامين .. المادة التى نقابلها كلما
نغلق الأمر بالتوصيل داخل المخ ..

تم تخليقه معملياً للمرة الأولى عام 1931 إلا أنه موجود فى
نباتات كثيرة .. إنهم يعرفونه فى أمريكا الجنوبية ويتعاطون
مشروباً يذهب العقل اسمه (أياخواسكا ayahuasca) يحوى
كمية هائلة من هذه المادة ..

تعاطى هذه المادة بالشـم أو الحقن بسبب هلاوس لا تدوم أكثر
من نصف ساعة .. تبدأ الهلاوس السمعية والبصرية وتغيرات
المزاج ، لهذا يعتبرون تعاطى الأياخواسكا تجربة صوفية فى
البرازيل ، خاصة إذا تم تعاطيه بالفم لأنه يمنحك رحلة غريبة
مدتها ثلاث ساعات كاملة .. تصور أن هذا الـ DMT مصدر عدة
ليان تمارسها القبائل فى البرازيل ، وبعضها يمزج الشامانية
بالمسيحية بتعاطى الـ DMT فى خليط عجيب ..

من جيد يظهر د. شتراسمان ليعلن أن ذات المشاهد البهرة
التي يراها من يمرون بتجربة الـ NDE يمكن أن نحدثها صناعياً
لرقمنا بحقن الـ DMT ..

كنت أنا أرّجف من فرط الانفعال ..

هناك طبيب نفسي يفتش بنهم عن تجارب الـ NDE ويجربها بلا قلق . وهناك طبيب ألماني شاب يجدونه ميتا ومعه محقن به ثار تلك للعادة التي تسبب ما يشبه الـ NDE ..

هل يمكن الربط بين الحادثتين ؟

أم أنها صدفة ؟ هذه الصدفة لقمة ضخمة لا أستطيع ابتلاعها بحق . أن يكون هناك اثنان يمارسان تجارب الدنو من الموت في وحدة سافارى ..

هل قتل (شرايدر) نفسه أم هناك من قتله ؟ بمعنى آخر : هل مات نتيجة خطئه هو أم نتيجة خطأ شخص آخر ؟

شخص تخلص من الجثة والمسئولية بهذه الطريقة ؟

إن عقلي يوشك على الانفجار ..

- 14 -

فى اليوم التالى قرأت كل ما وقع تحت يدى عن تجربة الدنو من الموت ..

المشكلة أن ترسانة العقاقير التى تحدث تأثيراً مماثلاً كبيرة جداً .. كل القبائل البدائية عرفت هذه العقاقير واستعملتها لأغراض دينية خاصة بها .. التحليق فى الفضاء والتشوة والانفصال عن الجسد .. ثم النور الساطع فى نهاية النفق ..

مثلاً عقار الكيتامين Ketamine هو العقار الأكثر أهمية فى إحداث هذه التجارب .. هناك طبيب اسمه (ياتسن Jansen) وجد تشابهاً يدير الرعوس بين تأثير هذا العقار وتجربة الدنو من الموت .. السبب هو أن الكيتامين ينشط مادة معينة فى المخ ، وهذه المادة هى ذاتها التى يفرزها المخ عندما يفتقر إلى الأكسجين .. أى أن الحقن بالكيتامين ونقص الأكسجين فى المخ للأعماى يؤدى لنفس النتيجة .. تجربة الدنو من الموت ..

فك عالم اسمه (بلاكمور) قال إن سبب هذا الشعور العارم بمرحة والسلام هو إفراز مادة (الاندورفين) فى المخ .. هذه مادة مخدرة وتسبب حالة عامة من الانبساط .. والمخ البشرى

يحتفظ بها للحظات النهائية الأليمة كي يوفر على صاحبه عذاباً لا يقع منه .. لقد خلق الله للمخ البشري القدرة على تخدير نفسه في لحظات الألم الجامحة ، وعقار الاندورفين خير دليل على ذلك .
 الفارق بين أنياب القط لا يشعر بالألم الذي نتصوره لأن عقار الاندورفين يفرز بإفراط ليحول النهاية محتملة .. هذه لحظة لا يصير الألم فيها مفيداً .. الجسم يحافظ على وجود الألم لكي يلفتنا من خطر الحرق والظعن ، لكن ما قيمة الألم عندما لا يكون هناك مفر ؟ الاندورفينات تجعل المريض يرى ضوءاً جميلاً بدلاً من أن يرى جسده الممزق والمسعفين المحيطين به .
 وهناك من قال إن الضوء الذي يراه المريض هو ضوء كاشات غرفة الجراحة ..

عقار الهلوسة LSD نفسه سبب هلاوس مشابهة تماماً ..

اعتاد المسعفون أن يصف هؤلاء الذين يلفظون أنفاسهم قبل الموت رؤية نفق وضوء ساطع ، وقد اقترح العلم الحديث أن سبب هذا الضوء الساطع نقص الأكسجين الوارد للدماغ مما يؤذي العصب البصري .. قيل كذلك إن هذا الضوء ناجم عن (الفوسفينات phosphenes) وهي شحنات كهربية في ألياف أعصاب العين تترافق مع نقص الأكسجين .. هناك من قالوا إن السبب هو إصابة الفص الصدغي الأيمن من المخ ، وقد استطاع

(مايكل برزنجير) طبيب الأعصاب في (أونتاريو) أن يحدث ذات التأثير في المتطوعين عن طريق تنبيه الفص الصدغي كهربياً .. ويقول إنه أحدث خبرات صوفية وخبرات الخروج من الجسد .. يختصار استطاع صناعياً أن يحدث كل أعراض هؤلاء الذين ماتوا وعادوا ، والذين خطفتهم الكائنات الفضائية .

السؤال هو : إذا كانت هذه مجرد ظاهرة كيميائية فلماذا لم يهاكل من عانى توقف القلب للحظات ؟ وإذا كان هؤلاء فعلاً يخرجون من العالم الآخر ، فلماذا لا يمر الجميع بذات الظروف ؟

لقد بدأت قناعتي تهتز ..

بالفعل أعتقد أن ما حدث لي كان تجربة كيميائية لعبت بي فيها شرات الموصلات في مخي ، تلك التي شعرت بأنها محرومة من الأكسجين ..

لذا لا يتعارض مع الدين في شيء .. تجربة الدنو من السموات لا علاقة لها بالعالم الآخر والثواب والعقاب .. وكما قلت سابقاً : سطح الجيران موجود سواء كان يوسعك أن تزحف فوق سطح يترك لك نظرة عليه أم لا .. فشك في استراق نظرة لا يدل على شيء ..

لكن ما الذى يحاول (مائريك) إثباته ؟

كنت جالساً فى الكافيتريا مع د. (يورجين) طبيب التخدير
الألماني ، عندما قال لى عرضاً إن (شرايدر) كان صديقاً مخلصاً
لـ (مائريك) ..

ـ « أنت تعرف أن الشعراء يتسجمون مع الأطباء النفسيين .
لا أحاول بهذا أن ألمح إلى أن الشعراء مجانين لو كنت قد فهمت
هذا ! »

كنت مهتماً بهذه النقطة ، فعدت أسأله :

ـ « هل كنا يقضيان وقتاً طويلاً معاً ؟ »

ـ « نعم .. واعتقد أن وفاة (شرايدر) قد أحدثت شرخاً ما لى
نفسية (مائريك) .. »

رحت أفكر فى هذا الكلام ..

صديقان .. كلاهما مهتم بالعبور إلى الحافة ..

ما هو الرابط ؟

يجب أن أجرى بعض الاتصالات ..

وكان (مالدريك) جالساً في مكتبه يطالع بعض الأوراق عندما رفع رأسه ليرآني ..

بتسم ابتسامة خافتة ودعاني إلى الجلوس ..

كان المكتب أنيقاً في بساطة ، وهناك جهاز كاسيت صغير يذيع موسيقاً كلاسييةً خالمة .. رائحة التبغ تفعم الجو توشك على إزهاق روحك .. على الجدران لوحات بسيطة ذات ذوق عال ، لكن خلفه على الجدار صورة عليها ستار أخضر .. كل حياة هذا الرجل ستائر خضر .. لكن لماذا يحرص إنسان على تعليق لوحة لا يريد أن يراها ؟ يذكرني الأمر بصورة (دوريان جراي) التي كان يغطيها كي لا يرى آثامه منطبعة على ملامحها ..

لاحظ نظراتي إلى اللوحة ، فقال باسمًا :

- « هذه صورة أمي .. منذ وفاتها لم أستطع عمل سلام مع لبيس ، أو عقد معاهدة مع ذكراها . لكنني أنتظر هذه اللحظة ، وهذا هو السبب في أنني علقته . يوماً ما سوف أزيح الستار ونثر في عنبرها وأقول : وداعاً يا أماء ! »

أمام نظراتي غير الفاهمة حكى لي قصته مع أمه .. ليست للصة العاصكة التي سمعتها أنت منذ قليل لكنه حكى ملخصاً

حذف منه أهم الأجزاء .. أى أن القصة لم تعد R وإنما صارت
13-16 .. لم يحك مكالمتها الأخيرة وهي تموت وكيف تجاهلها
هو . لم يحك العقدة التي طاردها ولا كيف صار فى أمان
الحاجة إلى أن يسمع أمه تسامحه .. لكنى قدرت أن هذه المرأة
فى الصورة أحدثت فى حياته أثرا لا يمكن وصفه .

قال لى ، وهو يصب لنفسه شيئا فى كأس صغيرة :

- « ربما لهذا أريد أن أفهم . أن أقرب أكثر .. »

سألته بصراحة :

- « هل أنت متدين يا د . (ماتريك) ؟ »

- « ليس كما تفهم أنت المتدين .. أنا أؤمن بعالم آخر وحياة

بعد الموت . فيما عدا هذا لا أدرى .. »

ثم نظر لى طويلاً ، وقال :

- « لماذا لم تبلغ الإدارة ؟ »

- « لأننى متورط .. ظننت الأمر واضحاً .. »

- « فهمى للبشر هو أن هذا ليس سبباً كافياً بالنسبة لك .. »

قلت ضاحكاً :

- « بالتعكس .. أنا راغب فعلاً في أن أكون معك في الجلسة القادمة .. إنه الفضول البشري .. »

- « هذا مثير بحق .. »

اضقت ، وأنا أتهمس :

- « ليس هذا فحسب .. ما أريده هو أن أكون لنا موضوع لتجربة القادمة ! »

- 15 -

مساء الخميس اتجهت إلى البناية إياها فى (ليربان) ..

أجتاز مدخل الحديقة بينما السيارة اللاندروفر التى أرسلها لى (ماتريك) تدور عائدة .. إن (ماتريك) يحرص على ألا يركب معى قدر الإمكان لى لا يربط أحد بيننا ..

أصعد إلى الشقة المغنية ، فأجد فى الداخل الهندى والبريطانى .. لم يأت الآخرون بعد .. جلست على مقعد وبعد دقائق جاءت الصحفية (مارى) حاملة حقيبة جلدية كبيرة ، فحييتها :

- « كيف حالك ؟ »

قالت ضاحكة ، وهى تتخذ مقعدًا :

- « لا أدرى .. كنت فى عالم آخر وقتها .. قيل لى إن قلبى كان عنيدًا . هذا يحدث كثيرًا جدًا .. لكنى للأسف لم أر شيئًا .. كل هذا الجهد كان من دون طائل .. »

- « حقًا ؟ ظلام داس ولا شيء سواه ؟ »

تحدثت ظهرها ، وقالت :

- « نعم .. للأسف .. وأنت تعرف الباقي .. »

قال الهندي حارس المصرف الذى عرفت أن اسمه (أكبر موندهارات) :

- « أنا مررت بحلقة من عناد القلب هذه لكنى رأيت كل شيء ..
شربت جداً من الحقيقة وفهمت .. »

- « فهمت أى شيء ؟ »

كان يتحدث بتلك الطريقة الهندية التى تضخم حرف الراء ،
وتلك الهالات السود تحت عينيه تدل بما لا يقبل الشك على
هنديته .. قال وهو يحك شاربه :

- « رأيت (شيفا) و (فشنو) .. كانوا ينتظروننى . رأيت (كالى)
المفلسة .. كانوا جميعاً ينتظروننى وهم يرقصون ابتهاجاً بقدومى ..
كل الآلهة كانت هناك .. »

- « أنت رأيت (شيفا) شخصاً ؟ »

- « نعم .. »

- « هذا ليس سهلاً .. »

- « هذا شرف عظيم .. لا يناله إلا القليل .. »

هنا رحت أحلق فى الأرض كى لا يرى تعبيرات وجهى ..
لهندوسى يرى (شيفا) و (كالى) ، بينما البوذى يرى بوذا ..

لو كانت تجربة الدنو من الموت حقيقية فمعنى هذا أن هؤلاء على حق . إذن هذا دليل آخر على أن ما يراه المرء ليس سوى بقايا من عقله الباطن .. كل واحد يرى مقدرات دينه الخاص ويعتقد أنه وصل العالم الآخر ..

تجربة الدنو من الموت ليست سوى ممارسة أخرى للأحلام . وعلى الأرجح يمكن أن تفسر بالقواعد الفرويدية العادية ..

بعد دقائق جاء الباقون وجاء (ماتريك) ..

قال لنا ، وهو يقف بقامته الفارعة بين المقاعد :

- « يسرنا أن يعود لنا د . عبد العظيم بعد ما تبيل فكره بعض الوقت . وهو موافق على أن يجرى التجربة التالية .. »

ثم أشار لى إشارة مهذبة راقية كي أتجه إلى ما وراء الستار الأخضر ..

هكذا نزلت قميصي واتجهت مرتبكا إلى سرير الكشف فجلت عليه ..

ظهر د . (ستيوارت) البريطاني باسماء ، وطلب منى أن اكشف ذراعى .. هنا أخرجت محقنا من جيبى ومددت يدي إلى زجاجة بنتوثال الصوديوم الموضوعة جوار سرير الكشف ، وقلت :

- « سوف أعد أنا لكم حقنة التخدير .. »

- « لا داعي لأن تتعب نفسك .. نحن سنقوم بكل شيء .. »

- « قلت إننى سأقوم بإعدادها .. هذه ليست مشكلة .. »

- « ولا هى مشكلة بالنسبة لنا .. »

- « أنا مصر .. »

نظر لى فى حيرة ثم التفت إلى د. (ماتريك) الذى كان خارج
الشارع مع الآخرين ..

- « د. (ماتريك) .. هلا جئت من فضلك ؟ »

جاء (ماتريك) ليجدنى جالساً على الفراش ممسكاً بالمحقن
المملوء بالسائل .. قال لى فى حيرة :

- « ما المشكلة ؟ »

- « المشكلة أننى مصرى على أن أعد البنتونال للنفسى .. لن
أترك أحداً يحققنى بشيء ما لم أعرف ما تحتويه الحقنة .. من
منهم أننى أعرف أكثر مما يجب بالنسبة لك .. »

ساعت فى وجهه ضحكة دافئة موحية بالثقة فى النفس ، وقال :

- « د. (عبد العظيم) .. أنت على وشك أن تتلقى صدمة كهربائية وعلى وشك أن يتوقف قلبك .. لو نعم تثق بنا حتى هذا الحد فمضى تثق ؟ لو أردنا الخلاص منك فأمامنا ألف فرصة ! »

- « أسف .. إما هذه الحفنة أو لا .. »

هنا جاء صوت من الخلف يقول بلكنة ألمانية واضحة :

- « لماذا لا تريحه ؟ ليس ما يطلبه عسيرا .. »

هز الرجل رأسه في عدم اقتناع ، وثبت لي القناة الوريدية ، ثم أمرني بأن أرقد على ظهري وأنتفخ بعمق .. في الوقت الذي التفت فيه الجميع من حولي في فتشول كالعادة ..

- « الآن يا دكتور .. أريدك أن تعد من واحد إلى عشرة .. »

واحد ..

اثنان ..

ثلاثة ..

أربع ..

- 16 -

هأنذا أبدأ الرحلة ..

من جديد أغمض عيني قيسود الظلام .

أنا ساحر صغير . فليأت الظلام .. يتلاشى الواقفون من حولى ..

أشعر بخفة غير مسبوقه .. صحيح أن الظلام دامس لكنى
أرى النور المعتدل فى نهاية النفق ..

هذه المرة أعرف أنه ليس لورا بالضبط . إنه المصباح يتوهج
فيخترق جفنى المغمضين ..

أرى شعيرات الدم داخل الجفنين . أحسها ..

السائل البارد يتسرب فى عروقى ..

حتى هذا أشعر به ..

ربما هى الحساسية المفرطة ، وربما هى الهستيريا ..

اعتدت أن أعتبر لتساء لىأتى يتحدث عن إحساسهن بأفعالهن
هستيريك .. من العلامات الأولى لسرطان الشرج أن يدرك المريض
أن عنده شرجا .. هكذا علمونا ..

الدكتورة (صافيناز) أستاذة الطب الشرعي تتكلم في نقطة ما من الزمكان (الزمكان = الزمان والمكان) .. تنظر لنا نظرتها الحازمة وشعرها الأشيب يتألق في ضوء النيون بقاعة الدرس .. تقول :

« أكثر الوفيات والإصابات في حوادث السيارات تحدث لدى ذلك التعس الذي يجلس جوار السائق .. أكثر الأماكن أماناً في السيارة هو الجالس خلف السائق .. »

صوت أزيز يتعالى لكنه ليس كريهاً .. يدغدغ الأذن حقاً فتطلب المزيد منه .. من أين يأتي ؟

أنا أقرب من هذا الثور الساطع ..

بعد لحظات أعبره ..

بعد لحظات لن تكون هناك أسرار ..

سوف أعرف كل شيء ..

Plus vite .. Plus vite ..

من البطيء إلى السريع ..

لأرجيتو ..

أداجيو ..

أندانتى ..

ألجريتو ..

ألجرو ..

برستو ..

ثم شعرت بالقرص على صدرى . وسمعت الصوت يهتف :

.. إخلأ !

وتلقيت الضربة القوية النسي توقعتها بين لوحى الكتف

فانتفضت ..

صرخت !

★ ★ ★

- 17 -

أمام أنظار الجميع نهضت صارخاً :

- « آي ! »

ثم وثبتت من على سرير الكشف .. الحقيقة أنني استرخيت لدرجة أنني أوشكت على أن أنام وأحلم ، لكن الضربة أعادتني إلى صوابي ..

أحدثت على سرير الكشف وبحثت عن الشيء الذي ضربني .. ها هو ذا ! هناك رفاص مثبت تحت الظهر وعندما يتحرك يقفز جزء من حشية السرير لأعلى ليضرب الراقدة على الفراش بين لوحى كتفيه .. ضربة قوية فعلاً ..

عندما اتصلت بـ (ماري) أطمئن على صحتها بعد تلك التجربة ، قالت إنها بخير فيما عدا تلك الكدمة في ظهرها ..

سألتني عما حدث لها عندما فقدت الرشد .. هل هناك من لكمها على ظهرها ؟
طبعا لا ..

هكذا طلبت لقاءها في وحدة سافاري وقصصت ظهرها لأجد الآن كدمة حديثة يمكن تخيلها .. كدمة على شكل قرص مستدير هنالك بين لوحى الكتف بالضبط ..

لم أفهم سبب ذلك ولا هي فهمت ..

اتصلت بالألماني (شتاينبرج) وسألته عما إذا كانت هناك كدمة في ظهره . فقال إنها تحدث في كل مرة وأنه لا يرى لها أهمية ما .. ربما هي من ضروريات تجربة الاقتراب من الموت ..

لم يكن عندي إلا تفسير واحد .. جهاز نزع الاستقطاب وهمي ولا يصدر أية كهرباء .. فقط يصدر صوتاً .. يجب أن ينتفض الجسد .. لذا هناك لتبرك في سرير الكشف بحرك ذلك الجزء الذي يجعل الجسد ينتفض مع الصوت .. هكذا تشعر أنك ترى صدمة كهربائية تخترق جسد المريض ..

هكذا اتفقت مع ماري على هذا السيناريو ..

كنت أريد أن أرى ما يحدث بالضبط .. أفهم ..

استعددت بذلك المحقق .. عندما غادر (ستيوارت) الغرفة ليبلغ (ماتريك) قمت بعمل المحقق بمحلول الملح .. لا شيء سواه .. هكذا عرفت أنني سأبقى متيقظاً أثناء التجربة .. وفي الوقت ذاته نظرت خلف المرقاب فتأكدت من أنني على حق .. لا يوجد خطر على حياتي بتاتاً .. هم يعتقدون أنني تحت تأثير الببتوثال بينما أنا لست تحت تأثير أي شيء على الإطلاق ..

الآن سقيت الضربة الخادعة التي جعلت الجميع يعتقد أنني
تلقيت صدمة كهربية ..

هكذا نهضت لأكشف الحقيقة ..

قلت للواقفين المدهشين وأنا أشير إلى القرص الزنبركي
المثبت في سرير الكشف :

- « هذا هو الدليل الأول .. الجسد ينتفض ليس بسبب الكهرباء
ولكن لأنه يتلقى ضربة قوية بين لوحى الكتف .. »

ثم انحيت لأكشف المقرض الذى يغطى اسفل المنضدة التي
عليها وضع المرقاب ..

- « الدليل الثانى .. »

سأنتى الألمانية (ستاينبرج) فى دهشة :

- « ما هذا ؟ »

قلت . وأنا أشير إلى جهاز الكمبيوتر الموضوع هناك :

- « هذا الجهاز يعرض فيلم فيديو يرسم ضربات قلب زالفة
على شاشة المرقاب . كل شيء مرسوم سلفاً . كيف ينبض
القلب وكيف يتوقف ثم يعود للنض . فقط يبرمج الطبيب
حركاتهما على هذا الفيلم .. قبل أن تستحيل الضربات على

الشاشة خطأ مسطحاً يضعان الأقطاب الزائفة ويصدران صيحة الإخلاء .. ثم يدوى صوت (بوم) .. وفي اللحظة ذاتها يشب لرفاص ليقفز الجسد لأعلى .. كل شيء مبرمج مسبقاً حتى لحظات التي يرفض فيها القلب الاستجابة .. فقط هو حقن ماري في قلبها بشيء ما كي تزداد الخدعة إحكاماً ! »

ثم نظرت إلى د. (ماتريك) الذي وقف صامتاً كأن الكلام غير مرجه له ، وقلت :

- « لهذا منطقي من المشاركة في إنعاش (ماري) . كانت تكفى لمسة واحدة مني لمعضمها كي أدرك أن القلب ينبض وليس متوقفاً على الإطلاق ! »

ثم أشرت إلى جهاز نازع الاستقطاب :

- « الدليل الثالث سوف نتأكد منه بسهولة .. هذا الجهاز لا يعمل على الإطلاق .. »

هنا صاح الهندي (أكبر) في عصبية :

- « وما جدوى هذا ؟ أي شيء يجنيه من الخداع ؟ »

نظرت إلى (ماتريك) الذي وقف في صمت ينظر لنا بدوره ، وقلت :

- « هذا هو السؤال .. رهاتى هو أن هذا الطبيب لا يقوم بإيقاف
القلوب على الإطلاق ، وإنما هو يحقن المرضى بعقار DMT قبل
بدء التجربة ليضعهم فى حالة من الهلوسة .. فترة قصيرة جداً
يعرفها هو ويعرف متى يفيق المريض منها . وهو ما تحاشيته
كما رأيتم .. أما لماذا لا يعطى ذلك صراحة فأمر أتركه له ! »

★ ★ ★

- 18 -

الآن يحيط الجميع بـ (ماتدريك) ..

لا أحد يحب أن يُخدع .. لا أحد يحب أن يكون أحمق .. هكذا بدا الغضب واضحاً في العيون ، أما أجمل ما في الأمر فهو أن (ستيوارت) البريطاني كان يقف مع الغاضبين .. أنت تعرف كما أعرف أنه لا يمكن إلا أن يكون متواطئاً في هذه اللعبة ..

كان (ماتدريك) يتراجع بظهره لكنه لم يخرج يده من جيبيه .. يتراجع وهو يقول في ثقة :

- « هذا خيال ! هل يمكن أن يدعى إنسان أنه يوقف القلوب بينما هو لا يوقفها ؟ يتظاهر بجريمة بينما هو لم يرتكبها ؟ والآلهي أنكم غاضبون لأن قلوبكم لم تتوقف ! »

قال (جيرار) الفرنسي وهو يكور قبضته :

- « نحن غاضبون لأن هناك من سخر منا .. سخر من جزء عزيز من ذكرياتنا .. لقد جعلتنا حمقى .. »

وقال الألماني :

- « كل هذه التمثيلية ، ما هدفها بالضبط ؟ »

هنا كان (ماتريك) قد خرج إلى القاعة التي كنا ننتظر فيها ..
لقد تغير منظرها كثيراً ..

على الجدران كانت هناك عشرات بل مئات .. ربما آلاف ..
بل ملايين .. بل بلايين . بلايين الصور لأمه .. الرقيقة العجوز
التي تسيطر على كل شيء من تفاصيل حياته

ال نظرة الثابتة الحنون . الابتسامة الواهنة التي كانت على
شفتيها يوم رآته بدخن ..

أطلق سبة أمريكية جداً ، وهتف :

« من الذى ؟ »

من الذى ؟

من الذى ؟

أنا التقطت هذه الصورة بالكاميرا الرقمية التي أحملها ..
تملئت لمكتب (ماتريك) وأزحت الستار الأخضر والتقطت
الصورة وظهرت .. وصنعت منها عشرات النسخ بآلة تصوير
المستندات فى سافارى ..

لقد قامت (ماري) - التي اتفقت معى فى الشكوك - بعمل متقن
عندما دخلنا وراء الستار .. الجميع توارى فلهضت لتلصق الصور

على كل الجدران مستعملة أبواباً من اللاصق .. انتهت بسرعة
فلحقت بنا بينما (ماتدريك) يحاول إلفاقتى ..

(ماتدريك) يتراجع فى ذعر وهو يرمق الجدران ..

أما فى كل مكان .. أما تراقبه .. تلومه ..

« هذه صورة أمى .. منذ وفاتها لم أستطع عمل سلام مع
نفسى ، أو عقد معاهدة مع ذكراها . لكنى أنتظر هذه اللحظة ،
وهذا هو السبب فى أننى علقته . يوماً ما سوف أريح الستار
رائظ فى عينيها وأقول : وداعاً يا أماء ! »

صحت فى (ماتدريك) وأنا البس قميصى ، شاعراً بأن ارتداء
الثياب بمنح موقفى قوة .. لا أحد يكون أقوى وهو عارى الجذع
إلا بروس لى ..

- « هل تريد أن أعطيك استنتاجاً ؟ أنت جربت عملية توقف
للقلب هذه مع (شرايدر) .. أجريت عليه التجربة فى غرفته
فكانت النتيجة أنه مات .. كانت لعبة خطيرة جداً .. هكذا جررته
إلى المصعد وألقته هناك وتركت جواره محققاً لتوحي بأنه
تعطى جرعة زائدة من المخدر .. هكذا أفلتت من المسئولية
والتشريح ثم يبرهن على شيء .. بعد هذا قررت ألا تجرب هذه

التجربة الخطرة ثانية .. سوف تجرب عقار الـ DMT على هؤلاء لتحدث تأثيرا مشابها للدنو من الموت .. لكنك كنت تعرف ان أحدا لن يقبل التجربة .. لا أحد يعرض نفسه للإدمان من أجل تجربة ، دعك من أنهم قد يقبلون فكرة توقف القلب والمفاخرة بالدنو من الجانب الآخر ، لكن الـ DMT يشعرهم بأن القصة كلها خدعة كيميائية .. هكذا رحت تجرى تجاربك .. هؤلاء يحسبون أنهم يمرون بتجربة دنو من الموت ، بينما أنت فى الحقيقة تحققهم بعقر الـ DMT لترى إن كان سيقود إلى شيء .. هل سيرون أحباءهم أم لا ؟ »

صاح ، وهو لا يرفع عينيه عن صور أمه :

« كان لابد أن أراها ثانية ! فشلت فى كل شيء ! حتى عقار الـ DMT اللعين لم يحدث أى تأثير معى .. أردت أن أحقق متطوعين وأن أحققهم بجرعات عالية .. هكذا أعرف الجرعة الصحيحة المناسبة لاستحضار من ماتوا .. »

« لن يكون من ماتوا هم من تراهم وقتها هم بل هلاوس المخ .. »

« أنت لا تفهم شيئا .. إن الـ DMT ليس مجرد عقار .. إنه يجعل النفوس تشرق وتتصل بالعالم الأثيرى .. »

- « كذا يقولون عن المخدرات جميعًا ! »

- « أنت لا تفهم .. (شرايدر) فى التجربة الأولى رأى دسنة من أقاربه الموتى .. لكنه مات فى التجربة الثانية .. جررته إلى المصعد وتخلصت منه .. »

هنا نظرت إلى الواقفين ، وقلت :

- « أنتم جميعًا سمعتم ما قال .. سوف تشهدون بذلك .. »

لكنهم لم ينظروا لى ..

كانوا ينظرون إلى الطبيب النفسانى العملاق الذى تكوم على الأرض فى وضع جنينى وراح يبكى كطفل :

- « سامحينى .. ماما .. أرجوك أن تسامحينى ! ماما ! »

لن أصدع رأسك بالتحقيقات والضوضاء التى تلت هذه الأمسية ..

لقد عرفوا كل شيء .. وكان (ستيوارت) البريطانى يعرف القصة كلها وهو على شيء من الخبال بالمناسبة مما جعله يتحمس لهذه التجارب ..

الآن ذهب (ماتدريك) إلى مكان تعرفه جيدًا .. لقد انهار توازنه النفسى الهش تمامًا مع هذه التجربة ، خاصة بعد ما رأى صور أمه تلاحقه كالضمير ..

بالتفتيش في شقته وجد رجال الشرطة كمية لا بأس بها من
 عقار DMT وعقار الكيتامين .. كان يجرب كل شيء ويريد
 الوصول للطريقة المثلى لرؤية من ماتوا . رؤية أمه بالذات ..
 الآن انتهت مهمتى هنا وحان وقت العودة إلى الكامبيرون ..
 وداعا يا جنوب أفريقيا . وداعا يا ناتال ..

لن أشتاق لكم أبدا !

كنت أتمنى أن أعرف ما سيفعلونه مع (ماتريك) في المصححة ،
 وما سوف تفضى إليه محاكمة (ستيوارت) ..
 لكن هذه أمور لا تعنينا هنا في سافارى .

د. علاء عبد العظيم
 من قرب ديربان

تمت بحمد الله

المصادر:

● هبة حسين : أغرب من الخيال . كتاب اليوم . الطبعة الثالثة . نوفمبر 1994 .

● عدد من مواقع الإنترنت .

● Theresa Cheung: The Element Encyclopedia of the psychic world. Harper Element. London.1 st ed. 2006

سافاري

مغامرات غريب خارج نطاق
تو يفل حيا وكم بالوطن

روايات قصصية الخيال



في محمد عثمان التوفيق

البريد الإلكتروني

محمد التوفيق

مركز التوزيع

العدد القادم

عن العليور نحيكي

NIDE

أنت تقرب من النور .. من فتحة النطق .. سوف تعبر ..
شعور بالنشوة يفمرك ، لكنه كذلك توثر لذينة .. درجة
معينة محبة من الخوف .. لكنك سوف تعبر .. وسوف
تري ما ينتظرك هناك .. تعرف مصدر هذا الضوء وسره ..
ربما تذوب فيه للأبد .. ربما لهذا جنت إلى العالم .. ربما
لهذا أنت موجود .. كي تذوب فيه فلا يصير لك وجوه ..



المؤسسة
العربية الحديثة

راجل إلى حالك

التمن في مصر 300
وداعلة بالمولد الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

www.dvd4arab.com